

مختارات من كتاب العقد الفريد

مختارات من كتاب العقد الفريد
أحمد ابن عبد ربه الأندلسي
ترجمة: د.نظمي لوقا
الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

الأندلسي، أحمد ابن عبد ربه.– اختارها وقدمها: أحمد رجب –مختارات من كتاب العقد الفريد
– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
١٦٢ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٦ – ٤ – ٨٦٢٨٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ١٩٨١٠ / ٢٠٢٢

مختارات من كتاب العقد الفريد

أحمد ابن عبد ربه

اختارها وقدمها

أحمد رجب

مقدمة

الفريدان .. العقد وصاحبه

هذه المختارات من كتاب "العقد الفريد" لصاحبه أحمد بن عبدربه الأندلسي، ويعد هذا الكتاب من أمهات كتب الأدب، وهو جامع للأخبار والأنساب، والأمثال، والشعر، حتى الطب والموسيقى.

وقد أودع فيه صاحبه خلاصة ما دون من كتب الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة وغيرهم. ولم يقتصر على المأثور عن العرب، بل وشى كتابه بما ترجم عن اليونان، والفرس، والهنود، من ضروب الحكمة والموعظة والملح. وقد تأنق في تبويبه وتفنن في ترتيبه، فقسمه إلى خمسة وعشرين كتابًا في موضوعات شتى ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهله. وقد قسمه المؤلف إلى خمسة وعشرين كتابًا، وسمى كل كتاب باسم درة لتنتظم وتجتمع كلها بخيط هذا الكتاب عقدًا فريد الروعة، فمن «لؤلؤة السلطان» إلى «جوهرة الأمثال» إلى «ياقوتة الألحان» إلخ.. والكتاب سفر ضخم عَرَضَ لكثيرٍ من الموضوعات مثل: أعاريض الشعر، أيام العرب ووقائعها، أمثال العرب، أخبار الكَتَبَة، آداب الطعام والشراب، وغير ذلك.

المؤلف

ومؤلف كتاب العقد الفريد هو أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربّه بن حبيب بن حُدَير بن سالم القرطبي (٢٤٩-٣٢٨هـ)، وكان مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي ولد بقرطبة التي كانت قلب الثقافة العلمية والأدبية الأندلسية كما كانت بغداد قلب الثقافة العباسية، وتتلمذ فيها على يد علماء الأندلس وأدباءها، ومن أبرزهم محمد بن وضاح، ويحيى بن يحيى الفقيه، والمغني زرياب، كما اطلع على أمهات الكتب الأدبية في المشرق العربي كالبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة، وصبّ كل ما استوعبه منها في كتاب العقد الفريد، حتى ذاع صيته واشتهر بسعة علمه وطول خبرته في الشعر، وعاصر من خلفاء الأندلس محمد بن عبد الرحمن، وعبد الرحمن الناصر.

يقول عنه الثعالبي –صاحب "يتيمة الدهر"– في ترجمته له: «إنه أحد محاسن الأندلس علماً وفضلاً وأدباً ومثلاً، وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة».

ومن الجدير بالذكر أنه لم يصل إلينا من كتبه سوى هذا الكتاب "العقد الفريد"، وقد آن الأوان لنشرع في الحديث عنه، حيث نجد أنّ ابن عبد ربه بدأ كتابه بمقدمة وضَّح فيها الدافع الذي دفعه لتصنيفه، وبيّن فيها مضمون الكتاب، والمنهج الذي سلكه.

الكتاب

عاش ابن عبد ربه حياته كاملة في قرطبة، ولم يغادرها أو يسافر منها إلى المشرق العربي، إلى أن توفي بالمرض ذاته الذي توفي به الجاحظ، وهو الفالج، تاركا خلفه جوهرة من جواهر الآدب التي لم يصل إلينا منها عدا كتابه "العقد الفريد"، وقد ذكر الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر" ابن عبد ربه فقال: (إنه أحد محاسن الأندلس علمًا وفضلا وأدبًا ومثلا، وشعره في نهاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة". يعدّ كتاب العقد الفريد من أشهر الكتب في عصر تأليفه إلى هذا الحين، إذ يعدّ موسوعة علمية أدبية جمع فيه من الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض والموسيقى والنقد والبلاغة، والعادات والتقاليد والأخلاق. عُرِف الكتاب منذ تأليفه باسم العقد، وذكرت الكتب الأدبية والنقدية وتاريخ الأدب – ومنها كتاب المستشرق بروكلمان تاريخ الأدب العربي– اللاحقة بأن الأبشيهي صاحب كتاب المستطرف في كل فن مستظرف هو أول من أضاف كلمة الفريد إلى كلمة العقد دلالة على مدى إعجاب الأدباء بمادته وتفرّده، وقد وصل إلينا باسم كتاب العقد الفريد كاملًا، وقيل بأنّ الكتاب سمي بالعقد لأنه قسّم إلى أبواب، حمل كل باب منها اسم حجر كريم، كالزبرجدة والمرجانة والياقوتة والجمانة واللؤلؤة وغيرهم..

وقد بدأ ابن عبد ربه كتاب العقد الفريد بمقدمة تفصيليّة، ذكر فيها سبب تأليفه الكتاب، وأقسامه، والمنهج الذي اتبعه في التأليف، أما في سبب تأليفه فقال: "وبعدُ، فإنّ أهلَ كلِّ طبقةٍ وجهابذةَ كلِّ أمّةٍ قد تكلّموا في الأدب، وتفلسفوا في العلوم على كلّ لسان ومع كلّ زمان، وأنّ كلّ متكلِّمٍ

منهم قد استفرغ غايتَهُ، وبذَلَ جهده، في اختصارِ بديعِ معاني المتقدِّمين، واختيار جواهر ألفاظ السالفين، وأكثروا في ذلك، حتى احتاجَ المختصَر منها إلى اختصار والمتخيَّر غلى اختيار"، وهذا ما ميّز كتاب العقد الفريد عن غيره، إذ إنّه جاء شافيًا جامعًا لأكثر المعاني التي جرت على ألسنة العامة والخاصة، كما أنه قدّم غيه كل ما يتعلق بالمغرب الإسلامي من آداب وأخبار، دون أن يشير إلى الأندلس وأهلها، إلا عندما عرَّف بنفسه.

أمّا في محتوى الكتاب فقل ابن عبد ربّه: "وقد ألّفتُ هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب الألباب، وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختيار، وحسن الاختصار، وما سواه –يقصد المعلومات– فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعب من تأليفه" ، وقد استوعب في كتابه كل ما قرأه من كتب المشرق الإسلامي ككتاب البيان والتبيين والكامل وعيون الأخبار، حتى قال الصاحب بن عباد عندما اطّلع على الكتاب ورأى ما رأى مما فيه من ثقافة شرقية قال فيه: (هذه بضاعتنا ردت إلينا) أمّا منهج كتاب العقد الفريد فقد قسّمه ابن عبد ربه إلى خمسة وعشرين بابا –جوهرة–، متراصة على شكل العقد، وجعل أهمّها وأنفسها ما سُمّي بواسطة العقد وهي كتاب الواسطة في الخطب، وجعل على يمينها اثنتي عشرة كتابا جوهرة، وعلى يسارها اثنا عشرَ كتابًا جوهرة، وقد ابتعد فيه عن ذكر الأسانيد خوفًا من الإطالة.

المنهج

قدم أحمد بن عبدربه لكتابه بمقدمة ضافية أوضح فيها دافع تأليفه الكتاب ومحتواه والمنهج الذي اتبعه في تصنيفه.

أما عن الدافع لتصنيفه؛ فقال: «وبعدُ، فإنّ أهلَ كلِّ طبقةٍ وجهابذةَ كلِّ أمّةٍ قد تكلّموا في الأدب، وتفلسفوا في العلوم على كلّ لسان ومع كلّ زمان، وأنّ كلّ متكلِّمٍ منهم قد استفرغ غايتَهُ، وبذَلَ جهده، في اختصارِ بديعِ معاني المتقدِّمين، واختيار جواهر ألفاظ السالفين، وأكثروا في ذلك، حتى احتاجَ المختصَر منها إلى اختصار والمتخيَّر غلى اختيار».

وأما عن المحتوى فيقول: «وقد ألّفتُ هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب الألباب، وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختيار، وحسن الاختصار، وما سواه –يقصد المعلومات– فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثورٌ عن الحكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعب من تأليفه». وهذا الحكم في الحقيقة لا يستقيم إطلاقه دوماً، حيث توجد من التأليفات ما هي أصعب من الاختيارات والتصنيفات أحياناً بحسب الموضوع والجهد والحال.

وفي موضعٍ آخر في بيان المحتوى الذي يميّزُ كتابه عن الكتب السابقة يقول: «وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة، فوجدتها غير متصرفة في فنون الأخبار، ولا جامعة لجمل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافيًا شافيًا، جامعًا لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة، وتدور على ألسنة الملوك والسُّوْقَة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر، تجانس الأخبار

في معانيها، وتوافقها في مذاهبها؛ ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظًا من المنظوم والمنثور».

فالكتابُ كما هو يبين من تلك المقدمة يُعَدّ من الموسوعات الأدبية التاريخية الاجتماعية، جَمَعَ فيه مجموعة من النصوص الأدبية في الشعر والنثر، ما بين حكمة مأثورة أو قول مشهور أو مثل سائر، بالإضافة إلى طائفة من الأخبار التاريخية والاجتماعية وغيرها، وطبائع النفس والنوادر والمَلَح، وغير ذلك، وبهذا اندرجَ ضمن الموسوعات العلمية المشهورة.

وفي مقدمة الكتاب أشار المصنِّفُ إلى عنوانه، والسبب في اختياره فقال: «وسميته كتاب (العِقد الفريد) لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة السلك وحسن النظام، وجزأته على خمسة وعشرين كتابًا، كل كتاب منها جزآن، فتلك خمسون جزءًا، في خمسة وعشرين كتابًا، وقد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد».

هذه الفكرة عن التسمية التي ذكرها المصنِّف في المقدمة؛ تقطع كل ما دار حول العنوان من أقاويل، وتؤكِّد أن اسمه (العقد الفريد)، وأنه قائم على التخييل والتشبيه، كما يؤكِّد ذلك أيضاً تقسيم الكتاب، وتسمية كل قسم منها، فقد تخيَّل ابن عبد ربه كتابه عقداً منظوماً، وسمّى كل باب باسمٍ من أسماء ذلك العقد؛ والعقد في حقيقته يتكوّن من خمس وعشرين حبة ثمينة، لكل حبة منها اسم معروف، وأنفس حبات العقد هي الحبة الوسطى التي تسمّى (واسطة العِقد)، عن يمينها اثنتا عشرة حبة، وعن يسارها اثنتا عشرة حبة أخرى، وأسماء الحبات من جهة اليمين تختلف.

وهي على هذا النحو مبدوءة من الواسطة عن اليمين ويقابلها مثلها عن اليسار:

المُجَنَّبَة، ثم العسجدة، ثم اليتيمة، ثم الدرة، ثم الزمردة، ثم الجوهرة، ثم الياقوتة، ثم المرجانة، ثم الجمانة، ثم الزبرجدة، ثم الفريدة، ثم اللؤلؤة. إلّا أنّ أسماء الحبّات من جهة اليسار أضافَ إليها كلمة (الثانية) فيقول: المجنبة الثانية، ثم العسجدة الثانية، وهكذا...

أما عن المنهج الذي سلكه ابن عبد ربه في كتابه فيقول هو عنه: «تطلّبتُ نظائر الكلام، وأشكال المعاني، وجواهر الحكم، ودروب الأدب، ونوادر الأمثال، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه، فجعلته بابًا على حدته؛ ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب، ونظيره في كل باب»، يشير هذا إلى جزء من المنهج الذي اتبعه المؤلف، وهو منهج علمي سديد، يعتمد على الترتيب المنطقي المنظم للأفكار والموضوعات، وجعلها في باب واحد، والحقيقة أن هذا المنهج الذي اتبعه قد جنبه الوقوع في عيب التكرار، الذي رأيناه في بعض المؤلفات، وكان ابن عبد ربه دقيقًا عندما وضع في اعتباره حال المتلقي ساعة تأليف الكتاب، إذ كان من دوافع اختيار ذلك المنهج – كما أشار إلى ذلك – تجنيب القارئ مغبة الجهد في البحث عما يريد، فجاءت أبواب الكتاب بمثابة الفهارس. وهذا الجزء من المنهجية يتعلّق بالجانب الأول وهو النظام.

ثم أما عن طريقته في اختيار النماذج، فيوضحها في قوله: «وقصدتُ من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهراً، وأظهرها رونقاً، وألطفها معنى،

وأجزلها لفظاً، وأحسنها ديباجة، وأكثرها طلاوة وحلاوة». وهو بهذا يقصد من وجهة نظره الشخصية، فهو يعتمد على التأثر الذاتي، والتذوق الفردي، ويفصح عن تمتّعه بذوقٍ فنّيٍ رفيعٍ يَعتدّ به.

وجانبٌ ثالث من جوانب المنهج العلمي الذي استخدمه يشير إليه أيضاً بقوله: «وحذفتُ الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز، وهرباً من التثقيل والتطويل؛ لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر، لا ينفعها الإسناد باتصاله، ولا يضرها ما حذف منها»، فهو لا يكثر من ذكر الأسانيد عند إيراد الأخبار؛ حتى لا يمل القارئ أو يطول الكتاب.

وهذه الطريقة التي أشار إليها رغم أنها تُيَسِّر على القارئ الوصول إلى المعلومة، إلا أنها لا تفي بالغرض، فأحياناً يقرأ الإنسان خبراً من الأخبار، فيرى أنه في حاجة ملحّة إلى معرفة أصل ذلك الخبر، وتتبُّع رجاله، وفي هذه الحالة لا بدّ من الرجوع إلى الأصل الذي نقلَ عنه، فلا ينفعه الاعتماد على هذا المصدر لأنه حذَف الأسانيد. فقد تصبح هذه النقطة مأخذاً عليه.

وهكذا نحس وراء هذا المنهج فكراً ناضجاً، وشخصيةً تتصف بالذكاء والخبرة والتحضّر، وتجمع بين عدّة ثقافات متنوعة، فقد ذكَر المنهج كاملاً في كتابه حتى لا يترك القارئ في حيرة للبحث عن منهجه، وهو كما رأينا منهجٌ علميّ سديد، يتصل بالترتيب، ويتصل باختيار النماذج وكيفية توظيفها توظيفاً حسَناً، حتى تتّسم وتتّسق مع الأفكار، أو الموضوعات التي يعرضها، ثم لم يحرِم المتلقّي مِن مراعاة ظروفه من حيث التخفيف، وتقديم المعلومة في وقتٍ وجيز؛ حتى لا يملّ أو يجهد نفسه.

أما بالنسبة لـ قيمة كتاب "العقد الفريد" في ميدان الأدَب؛ فإنّ الكتاب يمثّل موسوعةً ضخمة في الثقافة العربية، ودائرةَ معارفٍ تكاد تكون مكتملة الحلقات من الأخبار والنصوص الأدبية، ويُعَدّ أوّل كتاب في الأندلس من حيث الإفاضة والشمول والتنوّع، وكثرة التمثّل عن أدب المشارقة، كما يُعَدّ أيضاً مصدراً مهمّاً لمن يريد التعرّف على حياة العرب الأدبية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

ورغم أنّ ابن عبدربه لم يترك جانباً إلا وأشار إليه في كتابه، إلا أننا نجد أنّ السمة الأدبية سيطرت عليه من أوله حتى آخره في عَرض المادة العلمية بأسلوبٍ أدبي جيّد، والاستشهاد في كل موقف بما يستجاد من الأدب، فصاحبه أديب بارع.

أحمد رجب

كتاب اللؤلؤة في السلطان

السلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقوام الحدود، والقطب الذي عليه مدار الدنيا؛ وهو حمى الله في بلاده، وظله الممدود على عباده؛ به يمتنع حريمهم، وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم، ويأمن خائفهم.

قالت الحكماء: إمام عادل، خير من مطر وابل؛ وإمام غشوم، خير من فتنة تدوم؛ ولما يزع الله بالسلطان أكثر ما يزع بالقرآن. وقال وهب بن منبه: فيما أنزل الله على نبيه داود عليه السلام: إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن كان لي على طاعة جعلت الملوك عليهم نعمة، ومن كان لي على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة. فحق على من قلده الله أزمة حكمه، وملكه أمور خلقه؛ واختصه بإحسانه، ومكن له في سلطانه، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته، والاعتناء بمرافق أهل طاعته؛ بحيث وضعه الله عز وجل من الكرامة، وأجرى له من أسباب السعادة. قال الله عز وجل: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: عدل ساعة في حكومة خير من عبادة ستين سنة.

وقال صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته.

ومن شأن الرعية قلة الرضا عن الأئمة، وتحجر العذر عليهم، وإلزام اللائمة لهم؛ ورب ملوم لا ذنب له. ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة،

إذ كان رضا جملتها، وموافقة جماعتها؛ من المعجز الذي لا يدرك، والممتنع الذي لا يملك؛ ولكل حصته من العدل، ومنزلته من الحكم. فمن حق الإمام على رعيته أن تقضي عليه بالأغلب من فعله، والأعم من حكمه. ومن حق الرعية على إمامها حسن القبول لظاهر طاعتها، وإضرابه صفحا عن مكاشفتها، كما قال زياد لما قدم العراق واليا عليها: أيها الناس، قد كانت بيني وبينكم إحن، فجعلت ذلك دبر أذني، وتحت قدمي، فمن كان محسنا فليزد في إحسانه، ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته. إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا، ولم أهتك له سترا، حتى يبدي صفحته لي.

اختيار السلطان لأهل عمله

لما وجه عمر بن هبيرة مسلم بن سعيد إلى خراسان، قال له: أوصيك بثلاثة: حاجبك، فإنه وجهك الذي به تلقى الناس، إن أحسن فأنت المحسن، وإن أساء فأنت المسيء، وصاحب شرطتك، فإنه سوطك وسيفك، حيث وضعتهما فقدر ضعتهما. عمال القدر. قال: وما عمال القدر؟ قال أن تختار من كل كورة رجالا لعملك فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطأوا فهم المخطئون وأنت المصيب.

صلاح الرعية بصلاح الإمام

قالت الحكماء: الناس تبع لإمامهم في الخير والشر. ولما أتي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسواريه، قال: إن الذي أدى هذا لأمين! قال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله يؤدون إليك ما أديت إلى الله

تعالى، فإذا رتعت رتعوا. ومن أمثالهم في هذا قولهم: إذا صلحت العين صلحت سواقيها. والأصمعي قال: صنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء، والفقهاء.

واطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغوطة فأنكر شيئا، فقال لوكيله: ويحك! إن لأظنك تخونني. قال: أفتظن ذلك ولا تستيقنه؟ قال: وتفعله؟ قال: نعم، والله إني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شر الثلاثة.

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

قالت الحكماء: أحزم الملوك من قهر جده هزله، وغلب رأيه هواه، وجعل له الفكر صاحبا يحسن له العواقب، وأعرب عن ضميره فعله ولم يخدعه رضاه عن سخطه، ولا غضبه عن كيده.

وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد، وكان ولي عهده: يا بني، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية إلا حزم أو توان.

وقالوا: لا ينبغي للعاقل أن يستصغر شيئا من الخطأ أو الزلل، فإنه متى ما استصغر الصغير يوشك أن يقع الكبير؛ فقد رأينا الملوك تؤتى من العدو المحتقر، ورأينا الصحة تؤتى من الداء اليسير، ورأينا الأنهار تتدفق من الجداول الصغار.

وقالوا: لا يكون الذم من الرعية لراعيها إلا لإحدى ثلاث: كريم قصر به عن قدره فاحتمل لذلك ضغنا، أو لئيم بلغ به إلى ما لا يستحق فأورثه ذلك بطرا، أو رجل منع حظه من الإنصاف فشكا تفريطا.

ومن كتاب للهند: خير الملوك من أشبه النسر حوله الجيف، لا من أشبه الجيف حولها النسور. وقيل لملك سلب ملكه: ما الذي سلبك ملكك؟ فقال: دفع شغل اليوم إلى غد، والتماس عدة بتضييع عدد، واستكفاء كل مخدوع عن عقله. والمخدوع عن عقله من بلغ قدرا لا يستحقه، أو أثيب ثوابا لا يستوجبه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا هذه الفرص فإنها تمر مر السحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عين. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحزم الخلفاء. كانت عائشة رضي الله عنها إذا ذكر عمر قالت: كان والله أحوزيا نسيج وحده، وقد أعد للأمور أقرانها.

وقال المغيرة بن شعبة: ما رأيت أحدا هو أحزم من عمر، كان والله له فضل يمنعه أن يخدع، وعقل يمنعه أن يخدع.

وكان سعد بن أبي وقاص يقال له: المستجاب، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: اتقوا دعوة سعد. فلما شاطره عمر ماله، قال له سعد: لقد هممت. قال له عمر: بأن تدعو علي؟ قال: نعم. قال: إذا لا تجدني بدعاء ربي شقيا.

الولاية والعزل

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ستحرصون على الإمارة، ثم تكون حسرة وندامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة.

وقال المغيرة بن شعبة: أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة الأعداء.

وقال ولد ابن شبرمة القاضي: كنت جالسا مع أبي قبل أن يلي القضاء، فمر به طارق بن أبي زياد في موكب نبيل، وهو وإلى البصرة، فلما رآه أبي تنفس الصعداء وقال: أراها وإن كانت تحب كأنها ... سحابة صيف عن قريب تقشع، ثم قال: اللهم لي ديني ولهم دنياهم. فلما ابتلى بالقضاء، قلت له يا أبت أتذكر يوم طارق؟ قال: يا بني، إنهم يجدون خلفا من أبيك، وإن أباك حط في أهوائهم، وأكل من حلوائهم.

قيل لعبد الله بن الحسن: إن فلانا غيرته الولاية قال: من ولي ولاية يراها أكبر منه تغير لها، ومن ولى ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها.

ولما عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المغيرة بن شعبة عن كتابة أبي موسى، قال له: أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة.

وكتب زياد إلى معاوية: قد أخذت العراق بيميني وبقيت شمالي فارغة يعرض له بالحجاز – فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم اكفنا شمال زياد. فخرجت في شماله قرحة فقتلته.

ولقي عمر بن الخطاب أبا هريرة، فقال له: ألا تعمل؟ قال: لا أريد العمل. قال: قد طلب العمل من هو خير منك، يوسف عليه الصلاة والسلام. قال: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم.

وأراد عمر ابن الخطاب أن يستعمل رجلا، فبادر الرجل فطلب منه العمل. فقال له عمر: والله لقد كنت أردتك لذلك، ولكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه.

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم من النبي ولاية، فقال له: يا عم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها. وطلب رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: إنا لا نستعين على عملنا بمن يريده.

كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه، وما على الرعية من لزوم طاعته، وإدامة نصيحته؛ وما على السلطان من العدل في رعيته، والرفق بأهل مملكته.

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها، وقود الجيوش وتدبيرها، وما على المدبر لها من إعمال الخدعة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغرة وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع، واجتناب المضايق، وطول تجربته لها ولمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش، وعلمه أن لا درع كالصبر، ولا حصن كاليقين. ثم نذكر كرم الإقدام، ومحمود عاقبته، ولؤم الفرار، ومذموم مغبته. والله المعين.

صفة الحرب

الحرب رحى ثقالها الصبر، وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقافها الأناة، وزمامها الحذر، ولكل شيء من هذه ثمرة، فثمرة الصبر التأييد، وثمرة المكر الظفر، وثمرة الاجتهاد والتوفيق، وثمرة الأناة اليمن، وثمرة الحذر السلامة. ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، والحرب بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال.

قال عمرو بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن معد يكرب: صف لنا الحرب، قال: مرة المذاق، إذا كشفت عن ساق، من صبر فيها عرف، ومن نكل عنها تلف ثم أنشأ يقول:

الحرب أول ما تكون فتية … تسعى بزينتها لكل جهول
حتى إذا حميت وشب ضرامها … عادت عجوزا ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت … مكروهة للشم والتقبيل

وقيل لعنترة الفوارس: صف لنا الحرب. فقال: أولها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى.

العمل في الحرب

قيل لأكثم بن صيفي: صف لنا العمل في الحرب. قال: أقلوا الخلاف على أمرائكم، فلا جماعة لمن اختلف عليه. واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل، فتثبتوا، فإن أحزم الفريقين الركين، ورب عجلة تعقب ريثا. وادرعوا الليل، فإنه أخفى للويل، وتحفظوا من البيات.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها يوم الجمل، وسمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم: المنازعة في الحرب خور، والصياح فيها فشل، وما برأيي خرجت مع هؤلاء. وقال عتبة بن ربيعة لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما ترونهم خرسا لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الحيات. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من أكثر النظر في العواقب، لم يشجع.

وقال النعمان بن مقرن لأصحابه عند لقاء العدو: إني هاز لكم الراية، فليصلح كل رجل منكم من شأنه، وليشد على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازها لكم الثانية، فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوه، ومكان فرصته ثم إني هازها لكم الثالثة وحامل، فاحملوا على اسم الله. وللنعمان بن

مقرن هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه – إذ تكاملت عنده الحشود وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها: لأقلدن أعنتها رجلا يكون عداء لأول أسنة يلقاها. فقلدها النعمان بن مقرن.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا الفرصة، فإنها تمر مر السحاب، ولا تطلبوا أثرا بعد عين.

فرسان العرب في الجاهلية والإسلام

كان فارس العرب في الجاهلية ربيعة بن مكدم؛ من بني فراس بن غنم ابن مالك بن كنانة، وكان يعقر على قبره في الجاهلية، ولم يعقر على قبر أحد غيره. وكان بنو فراس بن غنم بن كنانة أنجد العرب، كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم. وفيهم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة: من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب. أبدلكم الله بي من هو شر لكم، وأبدلني بكم من هو خير منكم. وددت والله أن لي بجميعكم – وأنتم مائة ألف – ثلثمائة من بني فراس بن غنم.

ومن فرسان العرب في الجاهلية: عنترة الفوارس، وعتيبة بن الحارث ابن شهاب، وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنة، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والأحيمر السعدي، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن عبد ود، وعمرو ابن معد يكرب.

وفي الإسلام: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والزبير وطلحة، ورجال الأنصار، وعبد الله بن خازم السلمى، وعباد بن الحصين، وعمير بن الحباب، وقطري بن الفجاءة، والحريش بن هلال السعدي، وشبيب الحروري.

وقالوا: ما استحيا شجاع قط أن يفر من عبد الله بن حازم، وقطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة. وقالوا: ذهب حاتم بالسخاء، والأحنف بن قيس بالحلم، وخريم بالنعمة، وعمير بن الحباب بالشدة.

وبينما عبد الله بن خازم عند عبيد الله بن زياد إذ دخل عليه بجرذ أبيض. فعجب منه عبيد الله وقال: هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا؟ ونظر إليه. فإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ، واصفر كأنه جرادة ذكر. فقال عبيد الله: أبو صالح يعصى الرحمن، ويتهاون بالسلطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي على الليث الورد، ويلقى الرماح بنحره، وقد اعتراه من جرذ ما ترون، أشهد أن الله على كل شيء قدير.

ورجال الأنصار أشجع الناس. قال عبد الله بن عباس: ما استلت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قيلة. يعني الأوس والخزرج. وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر، من الأزد.

وقال عبد الله بن الزبير: التقيت بالأشتر النخعي يوم الجمل فيما ضربته ضربة حتى ضربني خمسا أو ستا، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق وقال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى آخر.

المكيدة في الحرب

قال النبي صلى الله عليه وسلم: الحرب خدعة.

وقال المهلب لبنيه: عليكم بالمكيدة في الحرب، فإنها خير من النجاة.

وكان المهلب يقول: أناة في عواقبها فوت، خير من عجلة في عواقبها درك.

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذت أمرا قط بحزم قط فظلمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة علي، ولا أخذت أمرا قط وضيعت الحزم فيه إلا لمت نفسي عليه وإن كانت العاقبة لي.

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أي المكايد فيها أحزم؟ قال: إذكاء العيون، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفرق، والاحتراس من البطانة، من غير إقصاء لمن يستنصح، ولا استنصاح لمن يستغش، واشتغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.

وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر المواثبة إن قرب، والغارة إن بعد، والكمين إن انكشف، والاستطراد إن ولى.

وقال المأمون للفضل بن سهل. قد كان لأخي رأى لو عمل به لظفر. فقال له الفضل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لو كتب إلى أهل خراسان وطبرستان والري ودنباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة لم نخل نحن من إحدى خصلتين، إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه، فعصانا أهل هذه البلدان وفسدت نياتهم فانقطعوا عن معاونتنا، وإما قبلناه وأمضيناه فلا نجد ما نعطى منه من معنا وتفرق جندنا ووهي أمرنا. فقال الفضل: الحمد الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه.

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون أن يبصره.

وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشجعان من أولي العزم، والجبناء من أولي الحزم فإن الجبان لا يألوا برأيه ما يقي مهجكم، والشجاع لا يعدو ما يشد بصيرتكم. ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرة الجبان، وتهور الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالج، والحسام الوالج.

وكان الإسكندر لا يدخل مدينة إلا هدمها وقتل أهلها، حتى مر بمدينة كان مؤدبه فيها. فخرج إليه، فألطفه الإسكندر وأعظمه. فقال له: أصلح الله الملك، إن أحق من زين لك أمرك، وأعانك على كل ما هويت لأنا. وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكاني منك، فأحب أن تشفعني فيهم، وأن لا تخالفني في كل ما سألتك لهم. فأعطاه من العهود والمواثيق على ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه. فلما توثق منه قال: فإن حاجتي إليك أن تهدمها وتقتل أهلها. قال: ليس إلى ذلك سبيل، ولا بد من مخالفتك. فقال له: إرحل عنا.

ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل غزة، فبعث إليه علجها: أن أبعث إلي رجلا من أصحابك أكلمه. ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحد غيري. قال: فخرج حتى دخل على العلج فكلمه، فسمع كلاما لم يسمع قط مثله. فقال العلج: حدثني: هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا، إني هين عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرضوني لما عرضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي؟ قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذ مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فخرج من عنده فمر من رجل من نصارى غسان فعرفه فقال: يا عمرو، قد أحسنت الدخول فأحسن

الخروج. ففطن عمرو لما أراده، فرجع. فقال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت، أعجل بهم. وبعث إلى البواب أن خل سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن، قال: لا عدت لمثلها أبدا. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج، قال له: أنت هو! قال: نعم، على ما كان من غدرك.

وصايا أمراء الجيوش

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجراح: إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشا أو سرية قال: اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا. فإذا بعثت جيشا أو سرية فمرهم بذلك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عند عقد الألوية: بسم الله وبالله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله والنصر، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله لا من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند حمة النهضات، وفي شن الغارات ولما وجه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان إلى الشام شيعه راجلا. فقال له يزيد: إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله، ثم قال: إنك

ستجد قوما حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له – يعني الرهبان – وستجد قوما فحصوا عن أوساط رؤسهم الشعر، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. ثم قال له: إني موصيك بعشر: لا تغدر، ولا تمثل، ولا تقتل هرما ولا امرأة ولا وليدا، ولا تقرن شاة ولا بعيرا إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلا، ولا تخربن عامر، ولا تغل، ولا تبخس.

وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة: سر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة. واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات فإن في العرب غرة: وأقل من الكلام فإنما لك ما وعي عنك. واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائرهم وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

كتب خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس مع ابن نفيلة الغساني: الحمد لله الذي فض حرمتكم، وفرق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلب ملككم، وأذل عزكم. فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إلي بالرهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرن إليكم بقوم تحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا.

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد: أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم،

فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل، لما عملوا بمساخط الله، كفار المجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم. أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم على منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع. وأقم ومن معك في كل جمعة يوم وليلة، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحدا أهلها شيئا، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا. ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت لأرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم. وليكن عندك العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم

وموافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم. وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل. فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، لا تخص بها أحدا يهوى، فيضيع من أمرك ورأيك اكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية. فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقالته، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصنعه بك. ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك. ولا تؤتي بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان.

الجبن والفرار

قال عمرو بن معد يكرب: الفزعات ثلاث: فمن فزعته في رجليه، فذلك الذي لا تقله رجلاه؛ ومن كانت فزعته في رأسه، فذلك الذي يفر عن أبويه، ومن كانت فزعته في قلبه، فذلك الذي يقاتل.

وقال الأحنف بن قيس: أسرع إلى الفتنة أقلهم حياء من الفرار.

وقامت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن لله خلقا قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفقت الريح خفقت معها، فأف للجبناء! أف للجبناء! وقال الشاعر:

يفر الجبان عن أبيه وأمه ويحمي شجاع القوم من لا

ويـرزق مـعـروف الجـواد عــدوه ويحرم معروف البخيـل أقـاربـه

وقال خالد بن الوليد عند موته. لقد لقيت كذا وكذا زحفا، وما في جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم هأنذا أموت حتف أنفى كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء.

باب في مداراة العدو

في كتاب للهند: إن العدو الشديد الذي لا تقوى له لا ترد بأسه عنك بمثل الخشوع والخضوع له، كما أن الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بلينه وانثنائه معها.

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبلها.

وقالت الحكماء: رأس العقل مغافصة الفرصة عند إمكانها، والانصراف عما لا سبيل إليه.

التحفظ من العدو إن أبدى لك المودة

قالت الحكماء: احذر الموتور ولا تطمئن إليه، وكن أشد ما تكون حذرا منه ألطف ما يكون مداخلة لك. فإنما السلامة من العدو بتباعدك منه، وانقباضك عنه؛ وعند الأنس إليه والثقة به تمكنه من مقاتلك.

وقالوا: لا تطمئن إلى العدو إن أبدى لك المقاربة، وإن بسط لك وجهه وخفض لك جناحه، فإنه يتربص بك الدوائر، ويضمر لك الغوائل، ولا يرتجى صلاحا إلا في فسادك، ولا رفعة إلا بسقوط جاهك.

وفي كتاب الهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر المواثبة إن

قرب، والمعاودة إن بعد، والكمين إن انكشف، والاستطراد إن ولى، والكرة إن فر.

وأوصى بعض الحكماء ملكا فقال: لا يكونن العدو الذي كشف لك عن عداوته بأخوف عندك من الظنين الذي يستتر لك بمخاتلته، فإنه ربما تخوف الرجل السم الذي هو أقتل الأشياء، وقتله الماء الذي هو محيي الأشياء؛ وربما تخوف أن تقتله الملوك التي تملكه، ثم تقتله العبيد التي يملكها.

وقال عبد الله بن الزبير لمعاوية – ويقال: بل معاوية قالها لعبد الله بن الزبير – : مالي أراك تطرق إطراق الأفعوان في أصول السخبر؟ وفي كتاب الهند: إذا أحدث لك العدو صداقة لعلة ألجأته إليك فمع ذهاب العلة رجوع العداوة، كالماء تسخنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله باردا: والشجرة المرة لو طليتها بالعسل لم تثمر إلا مرا.

وقال دريد بن الصمة:

وما تخفى الضغينة حيث كانت ... ولا النظر المريض من الصحيح

وقال زهير:

وما يك في صديق أو عدو ... تخبرك العيون عن القلوب

كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد

قال الفقيه أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه، تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا في الحروب وما يدخلها من النقص والكمال، وتقدم الرجال على منازلهم من الصبر والجلد، والعدة والعدد. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد، إذ كان أشرف ملابس الدنيا، وأزين حللها، وأجلها لحمد، وأدفعها لذم، وأسترها لعيب، كرم طبيعة يتحلى بها السمح السري، والجواد السخي. ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى تسمى بها، فهو الكريم عز وجل. ومن كان كريما من خلقه، فقد تسمى باسمه، واحتذى على صفته.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وفي الحديث المأثور: الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله.

وفي الحسن والحسين عليهما السلام لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت في بذل المال. قال: بأبي وأمي أنتما، إن الله قد عودني أن يتفضل علي، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني.

وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلبي: أنت متلاف. قال: منع الجود سوء ظن بالمعبود. يقول الله عز وجل: "وما أنفقتم من شيء فهو يخلقه وهو خير الرازقين".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا.

مدح الكرم وذم البخل

قال النبي صلى الله عليه وسلم: اصطناع المعروف يقي مصارع السوء.

وقال عليه الصلاة والسلام: إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق، ويبغض سفسافها.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من العرب: من سيدكم؟ قالوا: الجد ابن قيس على بخل فيه. فقال صلى الله عليه وسلم: وأي داء أدوى من البخل؟ يقول الله تعالى: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".

وقال أكثم بن صيفى حكيم العرب: ذللوا أخلاقكم للمطالب، وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيموا على خلق تذموه من غيركم، وصلوا من رغب إليكم، وتحلوا بالجود يكسبكم المحبة، ولا تقتعدوا البخل فتتعجلوا الفقر.

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويخوفه بالفقر. فرد عليه: "الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم الفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا" وإني أكره أن أترك أمرا قد وقع لأمر لعله لا يقع.

وكان خالد بن عبد الله القسري يقول على المنبر: أيها الناس، عليكم بالمعروف فإن الله لا يعدم فاعله جوازيه. وما ضعفت الناس عن أدائه، قوي الله على جزائه.

وأخذه من قول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة. يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام: من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي.

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: من رزقه الله رزقا حسنا فلينفق منه سرا وجهرا، حتى يكون أسعد الناس به، فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين: إما لمصلح فلا يقل عليه شيء، وإما لمفسد فلا يبقى له شيء.

أخذه الشاعر فقال:

أسعد بمالك في الحياة فإنما ... يبقى خلافك مصلح أو مفسد
فإذا جمعت لمفسد لم يغنه ... وأخو الصلاح قليله يتزيد

الجود مع الإقلال

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الأنصار: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أفضل العطية ما كان من معسر إلى معسر.

وقال عليه الصلاة والسلام: أفضل العطية جهد المقل.

وقالت الحكماء: القليل من القليل أحمد من الكثير من الكثير.

أجود أهل الجاهلية

الذين انتهي إليهم الجود في الجاهلية ثلاثة نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وهرم بن سنان المري، وكعب بن مامة الإيادي. ولكن المضروب

به المثل: حاتم وحده، وهو القائل لغلامه يسار، وكان إذا اشتد البرد وكلب الشتاء أمر غلامه فأوقد نارا في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضل الطريق ليلا فيصمد نحوه، فقال في ذلك:

أوقـد فـإن الـليـل لـيـل قـر والريح مـا موقـد ريح صـــر
عســـى يـرى نارك مـن يمـر إن جلبت ضـــيفا فأنت حر

ومر حاتم في سفره على عنزة، وفيهم أسير. فاستغاث بحاتم ولم يحضره فكاكه، فاشتراه من العنزيين وأطلقه، وأقام مكانه في القيد حتى أدى فداءه. وقالوا: لم يكن حاتم ممسكا شيئا ما عدا فرسه وسلاحه، فإن كان لا يجود بهما.

وقالت نوار امرأة حاتم:

أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض واغبر أفق السماء، وراحت الإبل حدبا حدابير، وضنت المراضع على أولادها فما تبض بقطرة، وحلقت ألسنة المال وأيقنا بالهلاك. فوالله إنا لفي ليلة صنبر، بعيدة ما بين الطرفين، إذا تضاغى صبيتنا جوعا، عبد الله وعدي وسفانة، فقام حاتم إلى الصبيين، وقمت أنا إلى الصبية، فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل، وأقبل يعللني بالحديث، فعرفت ما يريد فتناومت، فلما تهورت النجوم، إذا شيء قد رفع كسر البيت ثم عاد؛ فقال: من هذا؟ قالت: إلا عليك يا أبا عدي. فقال. أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم. فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشي جانبها أربعة، كأنها نعامة حولها رئالها. فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمدية فخر، ثم كشطه عن جلده، ودفع المدية إلى المرأة، فقال لها: شأنك. فاجتمعنا على اللحم نشوي بالنار، ثم جعل يمشي في الحي يأتيهم بيتا بيتا، فيقول: هبوا أيها القوم عليكم بالنار،

فاجتمعوا والتفع في ثوبه ناحية ينظر إلينا، فلا والله إن ذاق منه مزعه، وإنه لأحوج إليه منا، فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظم وحافر، فأنشأ حاتم يقول:

مهلا نوار أقـل اللوم والعـذلا ... ولا تقولي لشـــيء فات ما فعلا

ولا تقولي لمـال كنـت مهلكـه ... مهلا وإن كنـت أعطى الإنس

يرى البخيل ســبيل المال واحدة ... إن الجواد يرى في مالـه ســـبلا

أجواد أهل الإسلام

وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلا في عصر واحد لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم.

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص.

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد، وهم: عبد الله بن عامر بن كريز وعبيد الله بن أبي بكرة، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسلم بن زيادة، وعبيد الله بن معمر القرشي، ثم التمي، وطلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم: عتاب بن ورقاء الرياحي، وأسماء بن خارجة الفزاري، وعكرمة بن ربعي الفياض.

باب في الحياء

قال النبي صلى الله عليه وسلم الحياء خير كله. الحياء شعبة من الإيمان.

وقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى يحب الحي الحليم المتعفف، ويكره البذىء السأل الملحف.

وقال عون بن عبد الله: الحياء والحلم والصمت من الإيمان.

وقال ابن عمر: الحياء والإيمان مقرونان جميعا، فإذا رفع أحدهما ارتفع الآخر معه.

وقال: مكتوب في التوراة: إذا لم تستح فاصنع ما تشاء. وقال: أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه

وذكر أعرابي رجلا حيا فقال: لا تراه الدهر إلا وكأنه لا غنى به عنك وإن كنت إليه أحوج، وإن أذنبت غفر وكأنه المذنب، وإن أسأت إليه أحسن وكأنه المسيء.

وقال الشعبي: تعاشر الناس فيما بينهم زمانا بالدين والتقوى، ثم رفع ذلك فتعاشروا بالحياء والتذمم، ثم رفع ذلك، فما يتعاشر الناس إلا بالرغبة والرهبة، وسيجىء ما هو شرمن ذلك.

وقيل: الحياء يزيد في النبل.

باب جامع الآداب

أدب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم

قال أبو عمر أحمد بن محمد: أول ما نبدأ أدب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أدبه صلى الله عليه وسلم لأمته، ثم الحكماء والعلماء، وقد أدب الله نبيه بأحسن الآداب كلها، فقال له: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا". فنهاه عن التقتير كما نهاه عن التبذير، وأمره بتوسط الحالين، كما قال عز وجل: "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما"، وقد جمع الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم في كتابه المحكم، ونظم له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات منه، فقال: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين " ففي أخذه العفو صلة من قطعه، والصفح عمن ظلمه؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغض الطرف عن المحارم، وصون اللسان عن الكذب؛ وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن مماراة السفيه، ومنازعة اللجوج. ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدبه باللين في عريكته والرفق بأمته فقال: "واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين". وقال: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك". وقال تبارك وتعالى: "لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم". فلما وعى عن الله عز وجل وكملت فيه هذه الآداب، قال الله تبارك وتعالى: "لقد جاءكم رسول

من أنفسكم عزيز عليكم ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت عليه وهو رب العرش العظيم".

باب أدب النبي لأمته

قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما أدب به أمته وحضها عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصلة الأرحام: أوصاني ربي بتسع "وأنا" أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عبرا.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: نهيتكم عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: لا تقعدوا على ظهور الطرق، فإن أبيتم فغضوا الأبصار، وأفشوا السلام، واهدوا الضال، وأعينوا الضعيف.

وقال صلى الله عليه وسلم: أوكوا السقاء، واكفئوا الإناء، وأغلقوا الأبواب، وأطفئوا المصباح، فإن الشيطان لا يفتح غلقا، ولا يحل وكاء، ولا يكشف الإناء.

وقال صلى الله عليه وسلم: ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله؛ قال: من أكل وحده، ومنع رفده، وجلد عبده. ثم قال: ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا. بلى يا رسول الله، قال: "من لا يقيل عزة ولا يقبل معذرة ثم قال؛ ألا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم" قال: من يبغض الناس ويبغضونه.

وقال: حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا البلاء بالدعاء وقال: ما قل وكفي خير مما كثر وألهى.

وقال المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وقال: اليد العليا خير من اليد السفلي.

"وقال" : وابدأ بمن تعول.

وقال: لا تجن يمينك على شمالك، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

وقال: المرء كثير بأخيه.

وقال: افصلوا بين حديثكم بالاستغفار، واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

وقال: أفضل الأصحاب من إذا ذكرت أعانك، وإذا نسيت ذكرك.

وقال: لا يؤم ذو سلطان في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه.

وقال صلى الله عليه وسلم: يقول ابن آدم مالي مالي، وإنما له من ماله ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو وهب فأمضى.

وقال: ستحرصون على الإمارة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة.

وقال: لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان.

وقال: لو تكاشفتم ما تدافنتم، وما هلك امرؤ عرف قدره.

وقال: الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة واحدة، والناس كلهم سواء كأسنان المشط.

وقال: رحم الله عبدا قال خيرا فغنم أو سكت فسلم.

وقال: خير المال سكة مأبورة، ومهرة مأمورة، وخير المال عين ساهرة لعين نائمة.

وقال في إناث الخيل: بطونها كنز وظهورها حرز.

وقال: ما أملق تاجر صدوق، وما أقفر بيت فيه خل.

وقال: قيدوا العلم بالكتابة.

وقال: زر غبا تزدد حبا.

وقال: علق سوطك حيث يراه أهلك.

باب في آداب الحكماء والعلماء

فضيلة الأدب أوصى بعض الحكماء بنيه فقال: الأدب أكرم الجواهر طبيعة، وأنفسها قيمة، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجليله، ويعز بلا عشيرة، ويكثر الأنصار بغير رزية، فالبسوه حلة، وتزينوه حلية، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة.

ومن كلام علي عليه السلام: فيما يروى عنه أنه قال: من حلم ساد، ومن ساد استفاد، ومن استحيا حرم، ومن هاب خاب، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة؛ ومن أبصر عيب نفسه عمي عن عيب غيره، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن احتقر لأخيه بئرا وقع فيها، ومن نسى زلته استعظم زلة غيره، ومن هتك حجاب غيره انهتكت عورات بيته، ومن كابر في الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تجبر على الناس ذل، ومن تعمق في العمل مل؛ ومن صاحب الأنذال حقر، ومن جالس العلماء وقر؛ ومن دخل مداخل السوء اتهم؛ ومن حسن خلقه، سهلت له طرقه؛ ومن حسن كلامه، كانت الهيبة أمامه؛ ومن خشي الله فاز؛ ومن استقاد الجهل، ترك طريق العدل؛ ومن عرف أجله، قصر أمله؛ ثم أنشأ يقول:

البس أخاك على عيوبه ... واستر وغط على ذنوبه
واصبر على بهت السفيه ... وللزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا ... وكل الظلوم إلى حسيبه

وقال شبيب بن شيبة: اطلبوا الأدب فإنه مادة للعقل؛ ودليل على المروءة، وصاحب في الغربة، ومؤنس في الوحشة، وحلية في المجلس، "ويجمع لكم القلوب المختلفة".

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا.

وقال بعض الحكماء: اعلم أن جاها بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال، وجاها بالأدب غير زائل عنك.

وقال ابن المقفع: إذا أكرمك الناس لمال أو لسلطان فلا يعجبك ذلك، فإن الكرامة تزول بزوالهما، ولكن ليعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب.

وقال الأحنف بن قيس: رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلا بفعل، ولا في مال إلا بجود، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع، ولا في صدق إلا بنيه.

وقال مصقلة الزبيري: لا يستغني الأديب عن ثلاثة واثنن؛ فأما الثلاثة: فالبلاغة والفصاحة وحسن العبارة، وأما الاثنان، فالعلم بالأثر والحفظ للخبر.

وقالوا: الحسب محتاج إلى الأدب، والمعرفة محتاجة إلى التجربة.

وقال بزرجمهر: ما ورث الآباء الابناء شيئا خيرا من الأدب، لأن بالأدب يكسبون المال، وبالجهل يتلفونه وقال الفضيل بن عياض: رأس الأدب معرفة الرجل قدره.

وقالوا: حسن الخلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قائد.

وقال سفيان الثوري: من عرف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه.

باب في تأديب الصغير

قالت الحكماء: من أدب ولده صغيرا سر به كبيرا.

وقالوا: اطبع الطن ما كان رطبا، واغمز العود ما كان لدنا.

وقالوا: من أدب ولده غم حاسده.

وقال ابن عباس: من لم يجلس في الصغر حيث يكره لم يجلس في الكبر حيث يحب قال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءة ناشـئـا   فمطلبها كهلا عليه شـديد

أدب الملوك

وقال العلماء: لا يؤم ذو سلطان في لسطانه، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه. وقال زياد: لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين: ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده زياد، فرحب به معاوية، ووسع له إلى جنبه، وأقبل عليه يسائله ويحادثه، وزياد ساكت، فقال له ابن عباس: كيف حالك أبا المغيرة، كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجرة؟ فقال: لا، ولكنه لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين. قال ابن عباس: ما أدركت الناس إلا وهم يسلمون على إخوانهم بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كف عنه يابن عباس، فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت.

الشيباني قال: بصق ابن مروان فقصر في بصقته، فوقعت في طرف البساط، فقام رجل من المجلس فمسحه بكمه. فقال عبد الملك بن مروان: أربعة لا يستحي من خدمتهم: الإمام والعالم والوالد والضيف. وقال يحيى بن خالد: مساءلة الملوك عن حالها من تحية النوكى، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير، فقل: صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة؛ وإن كان عليلا فأردت أن تسأله عن حاله، فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة.

وقالوا: إذا زادك الملك إكراما فزده إعظاما، ماذا جعلك عبدا فاجعله ربا، ولا تديمن النظر إليه، ولا تكثر من الدعاء له في كل كلمة. ولا تتغير له إذا سخط، ولا تغتر به إذا رضي، ولا تلحف في مسألته.

وقالوا: الملوك لا تسال ولا تشمت ولا تكيف. وقال الشاعر:

إن الملوك لا يخاطبونا ... ولا إذا ملوا يعاتبونا

وفي المقال لا ينازعونا ... وفي العطاس لا يشمتونا

وفي الخطاب لا يكيفونا ... يثنى عليهم ويبجلونا

فافهم وصاتي لا تكن مجنونا

وقالوا: من تمام خدمة الملوك أن يقرب الخادم إليه نعليه، ولا يدعه يمشي إليهما، ويجعل النعل اليمنى قبالة الرجل اليمنى، واليسرى قبالة الرجل اليسرى، وإذا رأى متكأ يحتاج إلى إصلاح أصلحه، ولا ينتظر فيه أمره، ويتفقد الدواة قبل أن يأمره، وينفض عنها الغبار إذا قربها إليه، وإن رأى بين يديه قرطاسا قد تباعد عنه قربه إليه ووضعه بي يديه على كسره.

وقال أصحاب معاوية لمعاوية: إنا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فأنت تكره أن تستخفنا فتأمر بالقيام، ونحن نكره أن نثقل عليك في الجلوس، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها ذلك؟ فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شئتم.

وقيل مثل ذلك ليزيد بن معاوية. فقال: إذا قلت على بركة الله.

وقيل مثل ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال. إذا وضعت الخيزرانة.

وما سمعت بألطف معنى، ولا أكمل أدبا، ولا أحسن مذهبا في مساءلة الملوك من شبيب بن شيبة، وقوله لأبي جعفر: أصلحك الله إني أحب المعرفة، وأجلك عن السؤال. فقال له: فلان بن فلان.

باب في الصمت

كان لقمان الحكيم يجلس إلى داود صلى اله عليه وسلم "مقتبسا"، وكان عبدا أسود، فوجده وهو يعمل درعا من حديد؛ فعجب منه ولم ير درعا قبل ذلك، فلم يسأله لقمان عما يعمل ولم يخبره داود، حتى تمت الدرع بعد سنة، فقاسها داود على نفسه، وقال: زرد طافا ليوم قرافا. تفسيره: درع حصينة ليوم قتال. فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله.

وقال أبو عبيد الله كاتب المهدى: كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، إن البلاء موكل بالمنطق.

وقال أبو الدرداء: أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعل لك أذنان اثنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تقوله ابن عوف عن الحسن، قال: جلسوا عند

معاوية فتكلموا وسكت الأحنف فقال معاوية: مالك لا تتكلم أبا بحر؟ قال: أخافك إن صدقت، وأخاف الله إن كذبت.

وقال المهلب بن أبي صفرة: لأن أرى لعقل الرجل فضلا على لسانه أحب إلي من أن أرى للسانه فضلا على عقله.

وقال سالم بن عبد الملك: فضل العقل على اللسان مروءة، وفضل اللسان على العقل هجنة.

وقالوا: من ضاق صدره اتسع لسانه، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن ساء خلقه قل صديقه.

وقال هرم ابن حيان: صاحب الكلام بين إحدى منزلتين، إن قصر فيه خصم، وإن أغرق فيه أثم.

وقال شبيب بن شيبة: من سمع الكلمة يكرهها فسكت عنها انقطع ضرها عنه.

وقال أكثم بن صيفي: مقتل الرجل بين فكيه.

وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة

فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرجل تبرا على مهل

وقال الشاعر:

الحلم زين والسكوت سلامة ... فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

ما إن ندمت على سكوتي مرة | لكن ندمت على الكلام مرارا

وقال لحسن بن هانيء:

خـل جـنـبـيـك لـرامـي | وامـض عـنـه بسـلام
مـت بـداء الصـمـت خير | لـك مـن داء الـكـلام
رب لـفـظ سـاق آجـا | ل فـئـام وفـئـام
إنمـا السـالم مـن أل | جـم فـاه بـلـجـام

وقال بعض الحكماء: حظي من الصمت لي ونفعه مقصور علي، وحظي من الكلام لغيري ووباله راجع علي.

وقالوا: إذا أعجبك الكلام فاصمت.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت أن تصمت؟ قال: فمتى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت أن تتكلم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أعطي العبد شرا من طلاقة اللسان.

باب التماس الرزق
وما يعود على الأهل والولد

قال النبي صلى الله عليه وسلم: العائد على أهله وولده كالمجاهد المرابط في سبيل الله. وقال صلى الله عليه وسلم: اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ "بنفسك ثم" بمن تعول. وقال عمر بن الخطاب: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة؛ وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض، وتلا قول الله جل وعلا: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون". وقال محمد بن إدريس الشافعي: احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس، فإنه لا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة. ومثله قول مالك بن دينار: من عرف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه. وقال كطاهر بن عبد العزيز: أخبرنا علي بن عبد العزيز، قال: أنشدنا أبو عبيد القاسم بن سلام:

لا ينقص الكامل من كماله ... ما ساق من خير إلى عياله

وقال عمر بن الخطاب "رضى الله عنه": يا معشر القراء، التمسوا الرزق، ولا تكونوا عالة على الناس. وقال أكثم بن صيفي: من ضيع زاده اتكل على زاد غيره. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: خيركم من لم يدع آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته. وقال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا.

وذكر رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد في العبادة والقوة على العمل، وقالوا: صحبناه في سفر فما رأينا بعدك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أعبد منه، كان لا ينفتل من صلاة، ولا يفطر من صيام. قال النبي صلى الله عليه وسلم: فمن كان يمونه ويقوم به؟ قالوا: كلنا؛ قال: كلكم أعبد منه. ومر المسيح برجل من بني إسرائيل يتعبد، فقال: ما تصنع؟ قال: أتعبد؛ قال: ومن يقوم بك؟ قال: أخي؟ قال: أخوك أعبد منك.

وقد جعل الله طلب الرزق مفروضا على الخلق كله، من الإنس والجن والطير والهوام، منهم بتعليم، ومنهم بإلهام وأهل التحصيل والنظر "من الناس" يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال والخلابة والاحتيال.

باب في فضل المال

قال الله تعالى "المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا". وقال النبي صلى الله عليه وسلم للمجاشعي: إن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإن كان لك دين فلك كرم. وقال عمر بن الخطاب: حسب الرجل ماله، وكرمه دينه، ومروءته خلقه.

وفي كتاب الأدب للجاحظ: اعلم أن تثمير المال آلة للمكارم، وعون على الدين، وتأليف للإخوان؛ وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه والرهبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به؛ فاجهد جهدك كله في أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة في دبن أو دنيا. وقال حكيم لابنه: يا بني، عليك بطلب المال، فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك وذل في قلب عدوك لكفي.

وقال عبد الله بن عباس: الدنيا العافية، والشباب الصحة، والمروءة الصبر، والكرم التقوى، والحسب المال. وكان سعد بن عبادة يقول: اللهم ارزقني جدا ومجدا، فإنه لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال. وقالت الحكماء: لا خير فيمن لا يجمع المال يصون به عرضه، ويحمي به مروءته، ويصل به رحمه. وقال عبد الرحمن بن عوف: يا حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي وقال سفيان الثوري: المال سلاح المؤمن في هذا الزمان.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم العون على طاعة الله الغنى، ونعم

السلم إلى طاعة الله الغنى، وتلا "ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم"، وقوله: "واستغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين".

صنوف المال

قال معاوية لصعصعة بن صوحان: إنما أنت هاتف بلسانك لا تنظر في أود الكلام ولا في استقامته، فإن كنت تنظر في ذلك فأخبرني عن أفضل المال. فقال: والله يا أمير المؤمنين إني لأدع الكلام حتى يختمر في صدري، فما أرهف به ولا أتلهق فيه، حتى أقيم أوده، وأحرر متنه. وإن أفضل المال لبرة سمراء في تربة غبراء، أو نعجة صفراء في روضة خضراء، أو عين خرارة في أرض خوارة. قال معاوية: لله أنت! فأين الذهب والفضة؟ قال: حجران يصطكان، إن أقبلت عليهما نفدا، وإن تركتهما لم يزيدا. وقيل لأعرابية: ما تقولين في مائة من المعز؟ قالت: قني؛ قيل لها: فمائة من الضأن؟ قالت: غنى؟ قيل لها: فمائة من الإبل؟ قالت: منى. وقال عبد الله بن الحسن: غلة الدور مسألة، وغلة النخل كفاف، وغلة الحب ملك. وفي الحديث: أفضل أموالكم فرس في بطنها فرس يتبعها فرس، وعين ساهرة لعين نائمة.

تدبير المال

قالوا: "لا مال" لأخرق ولا عيلة على مصلح، وخير المال ما أطعمك لا ما أطعمته. وقال صاحب كليلة ودمنة: لينفق ذو المال ماله في ثلاثة مواضع: في الصدقة إن أراد الآخرة، وفي مصانعة السلطان إن أراد الذكر، وفي النساء إن أراد "نعيم" ، العيش. وقال: إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة

ولا يدركها إلا بأربعة؛ فأما الثلاثة التي تطلب: فالسعة في المعيشة، والمنزلة في الناس، والزاد إلى الآخرة. وأما الأربعة التي تدرك بها هذه الثلاثة: فاكتساب المال من أحسن وجوهه، وحسن القيام عليه، ثم التثمير له، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضى الأهل والإخوان ويعود في الآخرة نفعه، فإن أضاع شيئا من هذه الأربعة لم يدرك شيئا من هذه الثلاثة؛ إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال، وإن هو أنفقه ولم يثمره لم تمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد، كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغبار، ثم هو مع ذلك سريع نفاده؛ وإن هو اكتسب وأصلح وثمر ولم ينفق الأموال في أبوابها كان بمنزلة الفقير الذي لا مال له، ثم لا يمنع ذلك ماله من أن يفارقه ويذهب حيث لا منفعة فيه، كحابس الماء في الموضع الذي تنصب فيه المياه، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه مصل وسال من نواحيه، فيذهب الماء ضياعا. وهذا نظير قول الله تعالى: "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما" وقوله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا".

ونظر عبد الله بن عباس إلى درهم بيد رجل، فقال له: إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. يريد أنه لا ينتفع به حتى ينفقه ويستفيد غيره مكانه.

باب في الشباب والصحة

قال أبو عمرو بن العلاء: ما بكت العرب شيئا ما بكت الشباب، وما بلغت به ما يستحقه. وقال الأصمعي: أحسن أنماط الشعر المرائي والبكاء على الشباب. وقيل لكثير عزة: ما "لك لا" تقول الشعر؟ قال: ذهب الشباب فما أطرب، ومات عبد العزيز فما – أرغب. وقال عبد الله بن عباس: الدنيا العافية، والشباب الصحة.

وقال محمود الوراق:

أليس عجيبا بأن الفتى	يصاب ببعض الذي في يديه
فمن بين باك له موجع	وبين مغذ معز إليه
ويسلبه الشيب شرخ الشبا	ب فليس يعزيه خلق عليه

قال ابن أبي حازم:

ولى الشباب فخل الدمع ينهمل	فقد الشباب بفقد الروح متصل
لا تكذبن فما الدنيا بأجمعها	من الشباب بيوم واحد بدل

وقال جرير:

ولى الشباب حميدة أيامه	لو كان ذلك يشترى أو يرجع

"قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه": قد مضى قولنا في العلم والأدب وما يتولد منهما، وينسب إليهما من الحكم النادرة، والفطن البارعة، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأمثال التي هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلى المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها "في" كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عم عمومها، حتى قيل: أسير من مثل. "وقال الشاعر":

ما أنت إلا مثل سائر   يعرفه الجاهل والخابر

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه، وضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلامه، قال الله عز وجل: "يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له" . وقال: "وضرب الله مثلا رجلين". ومثل هذا كثير في آي القرآن. فأول ما نبدأ به أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أمثال العلماء. ثم أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي، وهي التي كان يستعملها عفر بن يحيى في كلامه، ثم أمثالالعرب التي رواها أبو عبيد وما أشبهها من أمثال العامة، ثم الأمثال التي استعملها الشعراء في أشعارهم في الجاهلية والإسلام.

أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخية، وعلى رأس

الصراط داع يقول: ادخلوا الصراط ولا تعوجوا. فالصراط الإسلام، والستور حدود الله، والأبواب محارم الله، والداعي القران. وقال صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمن كالخامة من الزرع، يقلبها الريح مرة كذا ومرة كذا؟ ومثل الكافر مثل الأرزة المجذية على الأرض "حتى" يكون انجعافها بمرة. وسأله حذيفة: أبعد هذا الخير شر يا رسول الله؟ فقال: جماعة "على" أقذاء وهدنة على دخن. وقوله حين ذكر الدنيا وزينتها فقال: إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم. وقال لأبي سفيان: أنت أبا سفيان كما قالوا: كل الصيد في جوف الفرا: وقال حين ذكر الغلو في العبادة: إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. وقال صلى الله عليه وسلم: إياكم وخضراء الدمن. قالوا: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء. وذكر الربا في آخر الزمان، وافتنان الناس به، فقال: من لم يأكله أصابه غباره. وقال: الإيمان قيد الفتك. وقال صلى الله عليه وسلم: الولد للفراش وللعاهر الحجر. وقال في فرس: وجدته بحرا. وقال: إن من البيان لسحرا. وقال: لا ترفع عصاك عن أهلك. وقال صلى الله عليه وسلم: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. وقال: الحرب خدعة. وله صلى الله عليه وسلم وعلى آله أمثال كثيرة غير هذه، ولكنا لم نذهب في كل باب إلى استقصائه، وإنما ذهبنا إلى أن نكتفي بالبعض ونستدل بالقليل على الكثير، ليكون أسهل مأخذا للحفظ، وأبرأ من الملالة والهرب.

وتفسيرها: أما المثل الأول، فقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم. وأما قوله: المؤمن كالخامة والكافر كالأرزة، فإنه شبه المؤمن في تصرف الأيام به وما يناله من بلائها بالخامة من الزرع تقلبها الريح مرة كذا ومرة كذا. والخامة "في قول أبي عبيد": الغضة الرطبة من الزرع. والارزة: واحدة الأرز، وهو

شجر له ثمر، يقال له الصنوبر. والمجذية: الثابتة، وفيها لغتان: جذي يجذو، وأجذى يجذي. والانجعاف: الانقلاع، يقال: جعفت الرجل، إذا قلعته وصرعته وضربت به الأرض. وقوله لحذيفة: هدنة على دخن وجماعة على أقذاء؛ أراد ما تنطوي عليه القلوب من الضغائن والأحقاد، فشبه ذلك بإغضاء الجفون على الأقذاء. والدخن: مأخوذ من الدخان، جعله مثلا لما في الصدور من الغل. وقوله: إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم، فالحبط، كما ذكر أبو عبيد عن الأصمعي: أن تأكل الدابة حتى تنتفخ بطنها وتمرض منه؛ يقال: حبطت الدابة تحبط حبطا. وقوله: أو يلم، معناه: أو يقرب من ذلك؛ ومنه قوله إذ ذكر أهل الجنة فقال: إن أحدهم إذا نظر إلى ما أعد الله له في الجنة، فلولا أنه شيء قضاه الله له لألم أن يذهب بصره، "يعنى" لما يرى فيها، يقول: لقرب أن يذهب بصره. وقوله لأبي سفيان: كل الصيد في جوف الفرا، فمعناه أنك في الرجال كالفرا في الصيد، وهو الحمار الوحشي، وقال له ذلك يتألفه على الإسلام. وقوله حين ذكر الغلو في العبادة: إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى. يقول: إن المغذ في السير إذا أفرط في الإغذاذ عطبت راحلته من قبل أن يبلغ حاجته أو يقضي سفره، فشبه بذلك من أفرط في العبادة حتى يبقى حسيرا. وقوله في الربا: من لم يأكله أصابه غباره؛ إنما هو مثل لما ينال الناس من حرمته، وليس هناك "تراب ولا" غبار. وقوله: الإيمان قيد الفتك، أي منع منه، كأنه قيد له. وفي حديث آخر: لا يفتك مؤمن. وقوله في فرس: وجدته بحرا، وإن من البيان لسحرا؛ إنما هو على التمثيل لا على التحقيق. وكذلك قوله: الولد للفراش وللعاهر الحجر. معناه: أنه لا حق له في نسب الولد. وقوله صلى الله عليه وسلم: لا

ترفع عصاك عن أهلك؛ إنما هو الأدب بالقول، ولم يرد ألا ترفع عنهم العصا. وقوله: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؛ معناه أن لدغ مرة يحفظ من أخرى. وقوله: الحرب خدعة؛ يريد أنها بالمكر والخديعة..

أمثال روتها العلماء

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة فقال: يا أهل الكوفة، إني وجدت مثلي ومثلكم كالضبع والثعلب، أتيا الضب في جحره، فقالا: أبا حسل: قال: أجبتما "لم جئتما"؟ قالا: جئناك نختصم؟ قال: في بيته يؤتى الحكم، قالت الضبع: فتحت عيبتي؟ قال: فعل النساء فعلت، قالت: فلقطت تمرة، قال: حلوا جنيت؟ قالت فاختطفها ثعالة؛ قال: نفسه بغى – ثعالة: اسم الثعلب، الذكر والأنثى – قالت. فلطمته لطمة؛ قال حقا قضيت، قالت: فلطمني أخرى، قال: كان حرا فانتصر؛ قالت: فاحكم الآن بيننا؛ قال: حدث حديثين امرأة وإن لم تفهم فأربعة.

وقال عبد الله بن الزبير لأهل العراق: وددت والله أن لي بكم من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم. قال له رجل منهم: أتدري يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام؟ قال: وما ذاك؟ قال: ما قاله أعشى بكر حيث يقول:

علقتها عرضـــا وعلقـت رجلا   غيري وعلق أخرى ذلك الرجل

أحببناك نحن، وأحببت أنت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك "بن مروان".

من ضرب به المثل من الناس

قالت العرب: أسخى من حاتم، وأشجع من ربيعة بن مكدم، وأدهى من قيس بن زهير، وأعز من كليب وائل، وأوفي من السموأل، وأذكى من إياس بن معاوية، وأسود من قيس بن عاصم، وأمنع من الحارث بن ظالم، وأبلغ من سحبان وائل، وأحلم من الأحنف بن قيس، وأصدق من أبي ذر الغفاري، وأكذب من مسيلمة الحنفي، وأعيا من باقل، وأمضى من سليك المقانب، وأنعم من خريم الناعم، وأحمق من هبنقة، وأفتك من البراض.

من يضرب به المثل من النساء

يقال: أشأم من البسوس، وأمنع من أم قرفة، وأحمق من دغة، وأقود من ظلمة، وأبصر من زرقاء اليمامة – البسوس: جارة جساس بن مرة بن ذهل بن شيبان، ولها كانت الناقة التي قتل من أجلها كليب بن وائل، وبها ثارت بين بكر بن وائل وتغلب "الحرب" التي يقال لها حرب البسوس. وأم قرفة: امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفزاري، وكان يعلق في بيتها خمسون سيفا كل سيف منها لذي محرم لها. ودغة: امرأة من عجل بن لجيم، تزوجت في بني العنبر بن عمرو بن تميم. وزرقاء بني نمير: امرأة كانت باليمامة تبصر الشعرة البيضاء في اللبن، وتنظر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام، وكانت تنذر قومها الجيوش إذا غزتهم، فلا يأتيهم جيش إلا وقد استعدوا له، حتى احتال لها بعض من غزاهم، فأمر أصحابه فقطعوا شجرا وأمسكوه أمامهم بأيديهم، ونظرت الزرقاء، فقالت: إني أرى الشجر قد أقبل إليكم؛ قالوا لها: قد خرفت ورق عقلك وذهب بصرك، فكذبوها، وصبحتهم الخيل، وأغارت

عليهم، وقتلت الزرقاء. قال: فقوروا عينيها فوجدوا عروق عينيها قد غرقت في الإثمد من كثرة ما كانت تكتحل به. وظلمة: امرأة من هذيل زنت أربعين عاما وقادت أربعين عاما، فلما عجزت عن الزنا والقود اتخذت تيسا وعنزا، فكانت تنزى التيس على العنز، فقيل لها: لم تفعلين ذلك؟ قالت: حتى أسمع أنفاس الجماع.

ما تمثلوا به من البهائم

قالوا: أشجع من أسد، وأجبن من الصافر، وأمضى من ليث عفرين، وأحذر من غراب، وأبصر من عقاب "ملاع"، وأزهى من غراب، وأذل من قراد "بمنسم"، وأسمع من فرس، وأنوم من فهد، وأعق من ضب، وأجبن من صفرد، "وأحقد من جمل"، وأضرع من سنور، وأسرق من زبابة، وأصبر من عود وأظلم من حية، وأحن من ناب، وأكذب من فاختة، وأعز من بيض الأنوق، وأجوع من كلبة حومل، وأعز من الأبلق العقوق. الصافر: ذو الصفير من الطير، والعود: المسن من الجمال. والزبابة: الفأرة تسرق دود الحرير. والأنوق: طير يقال إنه: يبيض في الهواء. وفاختة: طير يطير بالرطب في غير أيامه.

ما ضرب به المثل من غير الحيوان

قالوا: أهدى من النجم، وأجود من الديم، وأصبح من الصبح؛ وأسمح من البحر، وأنور من النهار، وأقود من ليل، وأمضى من السيل، وأحمق من رجلة، وأحسن من دمية، وأنزه من روضة، وأوسع من الدهناء، وآنس من جدول، وأضيق من قرار حافر، وأوحش من مفازة، وأثقل من جبل، وأبقى من الوحي في صم الصلاب، وأخف من ريش الحواصل.

أمثال الرجال واختلاف نعوتهم

في الرجل المبرز في الفضل – قولهم: ما يشق غباره. وأصله السابق من الخيل. وقولهم: جري المذكى حسرت عنه الحمر. أي كما يسبق الفرس القارح الحضر وقولهم: جري المذكيات غلاء أو غلاب. وقولهم: ليست له همة دون الغاية القصوى.

الرجل النبه الذكر – قولهم: ما يحجر فلان في العكم. العكم. العكم: الجوالق، يريد أنه لا يخفي مكانه. وقولهم: ما يوم حليمة بسر. وكانت فيه وقعة مشهورة قتل فيها المنذر بن ماء السماء، فضربت مثلا لكل أمر مشهور. وقولهم: أشهر من الفرس الأبلق. وقولهم: وهل يخفي على الناس النهار. ومثله: وهل يخفي على الناصر الصبح. وقولهم: وهل يجهل فلانا إلا من يجهل القمر.

الرجل العزيز يعذبه الذليل – منه قولهم: إن البغاث بأرضنا تستنسر. البغاث صغار الطير. تستنسر: تصير نسورا. وقولهم: لا حر بوادي عوف. يريدون عوف بن محلم الشيباني، وكان منيعا. وقولهم: تمرد مارد وعز الأبلق. ما رد: حصن بدومة الجندل. والأبلق: حصن "السمؤال". ومن عز بز، ومن قل ذل، ومن أمر فل. أمر: كثر.

الرجل الصعب – منه قولهم: فلان ألوى بعيد المستمر. وقولهم: ما بللت منه بأفوق ناصل. وأصله السهم المكسور والفوق الساقط النصل. يقول: فهذا ليس كذلك "ولكنه كالسهم القوي". وقولهم: ما يقعقع لي بالشنان. وقولهم: ما يصطلى بناره. وقولهم: ما تقرن به صعبة.

النجد يلقى قرنه – منه قولهم: إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا والحديد بالحديد يفلح. والفلح: الشق. "ومنه: فلاحة الأرض، وهو شقها بالحرث". ولا يفل الحديد إلا الحديد. والنبع يقرع بعضه بعضا ورمي فلان بحجره، أي قرن بمثله.

قال أبو بكر أبي شبة، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يكفي أحدكم من الدنيا قدر زاد الراكب. وقال صلى الله عليه وسلم: ابن آدم، اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك. عبد الله بن سلام قال: لما قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتيته، فلما رأيت وجهه علمت أنه ليس بوجه كذاب، فسمعته يقول: أيها الناس، أطعموا الطعام وأفشوا السلام، وصلوا والناس نيام.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: ألا أخبركم بخيركم مجالسة؟ قالوا: بلى يا روح الله؛ قال: من تذكركم بالله رؤيته، ويزيد في عملكم منطقه، ويشوقكم إلى الجنة عمله. وقال عيسى بن مريم عليهما السلام للحواريين: ويلكم يا عبيد الدنيا! كيف تخالف فروعكم أصولكم، وأهواؤكم عقولكم، قولكم شفاء يبرئ الداء وفعلكم داء لا يقبل الدواء، لستم كالكرمة التي حسن ورقها، وطاب ثمرها، وسهل مرتقاها، ولكنكم كالسمره التي قل ورقها، وكثر شوكها، وصعب مرتقاها. ويلكم يا عبيد الدنيا! جعلتم العمل تحت أقدامكم، من شاء أخذه، وجعلتم الدنيا فوق رؤوسكم، لا يمكن تناولها، فلا أنتم عبيد نصحاء، ولا أحرار كرام. ويلكم يا أجراء السوء! الأجر تأخذون، والعمل تفسدون، سوف تلقون ما تحذرون، إذا نظر رب العمل في عمله الذي أفسدتم، وأجره الذي أخذتم. وقال عليه السلام للحواريين: اتخذوا

المساجد بيوتا، والبيوت منازل، وكلوا بقل البرية، واشربوا الماء القراح، وانجوا من الدنيا سالمين. وقال عليه السلام للحواريين: لا تنظروا في أعمال الناس كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان: مبتلى ومعافى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية. وقال عليه السلام لهم أيضا: عجبا لكم تعملون للدنيا، وأنتم ترزقون فيها بلا عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل.

وقال يحيى بن زكريا عليه السلام للمكذبين من بني إسرائيل: يا نسل الأفاعي، من دلكم على الدخول في مساخط الله الموبقة لكم، ويلكم! تقربوا بعمل صالح، ولا تغرنكم قرابتكم من إبراهيم "عليه السلام"، فإن الله قادر على أن يستخرج من هذه الجنادل نسلا لإبراهيم. إن الفأس قد وضعت في أصول الشجر، فأخلق بكل شجرة مرة الطعم أن تقطع وتلقى في النار.

وقال شعياء لبنى إسرائيل إذ أنطق الله لسانه بالوحي: إن الدابة تزداد على كثرة الرياضة لينا، وقلوبكم لا تزداد على كثرة الموعظة إلا قسوة، إن الجسد إذا صلح كفاه القليل من الطعام، وإن القلب إذا صح كفاه القليل من الحكمة. كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عابد قد أفسده العجب. يا بني إسرائيل، اسمعوا قولي، فإن قائل الحكمة وسامعها شريكان، وأولاهما بها من حققها بعمله.

وقال المسيح عليه السلام: إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذ نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى اجلها إذ نظروا إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا ما علموا أن سيتركهم،

هم أعداء لما سالم الناس، وسلم لما عادى الناس، لهم خبر، وعندهم الخبر العجيب، بهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وبهم علم الهدى وبه علموا، لا يرون أمانا دون ما يرجون، ولا خوفا دون ما يحذرون.

وهب بن منبه: قال "قال" داود عليه السلام: يا رب، ابن آدم ليس منه شعرة إلا وتحتها لك نعمة وفوقها لك نعمة، فمن أين يكافئك بما أعطيته؟ فأوحى الله إليه: يا داود، إني أعطي الكثير، وأرضى من عبادي بالقليل، وأرضى من شكر نعمتي بأن يعلم العبد أن ما به من نعمة فمن عندي لا من عند نفسه.

ولما أمر الله عز وجل إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده ويجعله قربانا، أسر بذلك إلى خليل له يقال له العازر، وكان له صديقا، فقال له الصديق: إن الله لا يبتلى بمثل هذا مثلك، ولكنه يريد أن يختبرك أو يختبر بك، وقد علمت أنه لا يبتليك بمثل هذا ليفتنك، ولا ليضلك ولا ليعنتك، ولا لينقص به بصيرتك وإيمانك ويقينك، فلا يروعنك هذا، ولا يسوأن بالله ظنك، وإنما رفع الله اسمك في البلاء عنده على جميع أهل البلايا، حتى كنت أعظمهم محنة في نفسك وولدك، ليرفعك بقدر ذلك في المنازل والدرجات والفضائل، فليس لأهل الصبر في فضيلة الصبر إلا فضل صبرك، وليس لأهل الثواب في فضيلة الثواب إلا فضل ثوابك، وليس هذا من وجوه البلاء الذي يبتلي الله به أولياءه، لأن الله أكرم في نفسه وأعدل في حكمه وأرحم بعباده من أن يجعل ذبح الولد الطيب بيد الوالد النبي المصطفي، وأنا أعوذ بالله أن يكون هذا مني حتما على الله أو ردا لأمره أو سخطا لحكمه، ولكن هذا الرجاء فيه والظن به، فإن عزم ربك على ذلك فكن عند أحسن علمه بك، فإني

أعلم أنه لم يعرضك لهذا البلاء الجسيم والخطب العظيم إلا لحسن علمه بك وصدقك وتصبرك، ليجعلك إماما، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أوصيكم بخمس لو ضربتم عليها آباط الإبل لكان قليلا: لا يرجون أحدكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم. وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس ذهب الجسد. وقال أيضا: من أراد الغنى بغير مال، والكثرة بلا عشية، فليتحول من ذل المعصية إلى عز الطاعة "أبى الله إلا أن يذل من عصاه". وقال الحسن: من خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن خاف الناس أخافه الله من كل شيء.

وقال بعضهم: من عمل لأخرته كفاه الله أمر دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أخلص سريرته أخلص الله علانيته. قال العتبي: اجتمعت العرب والعجم على أربع كلمات: قالوا: لا تحملن على قلبك مالا يطيق، ولا تعملن عملا ليس لك فيه منفعة، ولا تثق بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر.

وقال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند موته حين استخلفه: أوصيك بتقوى الله، إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفرائض، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت

موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا، وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم؛ فإذا سمعت بهم قلت: إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء؛ وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم، وأمسك عن حسناتهم، فإذا سمعت بهم قلت: أنا خير من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبا راهبا لا يتمنى على الله غير الحق. فإذا حفظت وصيتي فلا يكون غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك؟ وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أكره إليك من الموت، ولن تعجزه.

ودخل الحسن بن أبي الحسن على عبد الله بن الأهتم يعوده في مرضه، فرآه يصوب بصره في صندوق في بيته ويصعده، ثم قال: أبا سعيد، ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أؤد منها زكاة، ولم أصل منها رحما؟ قال: ثكلتك أمك، ولمن كنت تجمعها؟ قال: لروعة الزمان، وجفوة السلطان، ومكاثرة العشيرة. قال: ثم مات، فشهده الحسن، فلما فرغ من دفنه، قال: انظروا إلى هذا المسكين، أتاه شيطانه فحذره روعة زمانه، وجفوة سلطانه، ومكاثرة عشيرته، عما رزقه الله إياه وغمره فيه، انظروا كيف خرج منها مسلوبا محروبا. ثم التفت إلى الوارث فقال: أيها الوارث، لا تخدعن كما خدع صويحبك بالأمس، أتاك هذا المال حلالا، فلا يكونن عليك وبالا، أتاك عفوا صفوا، ممن كان له جموعا منوعا، من باطل جمعه، ومن حق منعه، قطع فيه لجج البحار، ومفاوز القفار، لم تكدح فيه بيمين، ولم يعرق لك فيه جبين. إن يوم القيامة يوم ذو حسرات، وإن من أعظم الحسرات غدا أن ترى مالك في ميزان غيرك، فيالها عثرة لا تقال، وتوبة لا تنال.

ووعظ حكيم قوما فقال: يا قوم، استبدلوا العواري بالهبات تحمدوا العقبى، واستقبلوا المصائب بالصبر تستحقوا النعمى، واستديموا الكرامة بالشكر تستوجبوا الزيادة، واعرفوا فضل البقاء في النعمة، والغنى في السلامة، قبل الفتنة الفاحشة، والمثلة البينة، وانتقال العمل، وحلول الأجل، فإنما أنتم في الدنيا أغراض المنايا، وأوطان البلايا، ولن تنالوا نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل معمر منكم يوما من عمره إلا بانتقاص آخر من أجله، ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر. فأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم، وفي معايشكم أسباب مناياكم، لا يمنعكم شيء منها، ولا يشغلكم شيء عنها. فأنتم الأخلاف بعد الأسلاف، وستكونون أسلافا بعد الأخلاف. بكل سبيل منكم صريع منعفر، وقائم ينتظر، فمن أي وجه تطلبون البقاء وهذان الليل والنهار، لم يرفعا شيئا قط إلا أسرعا الكرة في هدمه، ولا عقدا أمرا قط إلا رجعا في نقضه.

وقال أبو الدرداء: يا أهل دمشق، مالكم تبنون مالا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، وتجمعون ما لا تأكلون، هذه عاد وثمود قد ملئوا ما بين بصرى وعدن أموالا وأولادا، فمن يشتري مني ما تركوا بدرهمين؟ وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيما لم ينجع فيه الطعام ولا الشراب، وإذا كان القلب مغرما بحب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة. وقال الربيع بن خثيم: أقلل الكلام إلا من تسع: تكبير وتهليل وتسبيح وتحميد وسؤالك الخير وتعوذك من الشر وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر وقراءتك القرآن.

قال رجل لبعض الحكماء: عظني. قال: لا يراك الله بحيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك. وقيل لحكيم: عظني. قال: جميع المواعظ كلها

منتظمة في حرف واحد؟ قال: وما هو؟ قال: تجمع على طاعة الله، فإذا أنت قد حويت المواعظ كلها. وقال أبو جعفر لسفيان عظني. قال: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟. قال هارون لابن السماك: عظني. قال: كفي بالقرآن واعظا؛ يقول الله تبارك وتعالى: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد". إلى قوله "فصبعليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد".

قال لقمان لابنه: إذا أتيت مجلس قوم فارمهم بسهم السلام ثم اجلس، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك مع سهامهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتخل عنهم وانهض. وقال: يا بني، استعذ بالله من شرار الناس وكن من خيارهم على حذر. ومثل هذا قول أكثم بن صيفي: احذر الأمين ولا تأتمن الخائن، فإن القلوب بيد غيرك. وقال لقمان لابنه: لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فإنك لم تخلق لها، وما خلق الله خلقا أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثوابا للمطيعين، ولا بلاءها عقوبة للعاصين. يا بني، لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك. يا بني، لا تضيع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت، ومال غيرك ما تركت. يا بني، إنه من يرحم يرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم. يا بني، زاحم العلماء بركبتيك، وأنصت إليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء.

وقال خالد بن صفوان لابنه: كن أحسن ما تكون في الظاهر حالا، أقل ما تكون في الباطن، مآلا، ودع من أعمال السر مالا يصلح لك في العلانية. وقال أعرابي لابنه: يا بني، إنه قد أسمعك الداعي، وأعذر إليك الطالب، وانتهى الأمر فيك إلى حده، ولا أعرف أعظم رزية ممن ضيع اليقين وأخطأه الأمل. وقال علي بن الحسين لابنه، وكان من أفضل بني هاشم: يا بني، اصبر

على النوائب، ولا تعرض للحتوف، ولا تجب أخاك من الأمر إلى ما مضرته عليك أكثر من منفعته لك. وقال حكيم لبنيه: يا بني، إياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، فإني والله ما سخرت من شيء إلا نزل بي مثله، فاحذروها وتوقعوها، فإنما الإنسان في الدنيا غرض تتعاوره السهام، فمجاوز له ومقصر عنه وواقع عن يمينه وشماله، حتى يصيبه بعضها؛ واعلموا أن لكل شيء جراء ولكل عمل ثوابا. وقد قالوا: كما تدين تدان، ومن بر يوما بر به.

وقال حكيم لابنه: يا بني، إني موصيك بوصية، فإن لم تحفظ وصيتي عني لم تحفظها عن غيري: اتق الله ما استطعت، وإن قدرت أن تكون اليوم خيرا منك أمس وغدا خيرا منك اليوم فافعل، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس فإنك لن تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه، وإياك وما يعتذر منه فإنك لن تعتذر من خير أبدا، وإذا عثر عاثر فاحمد الله أن لا تكون هو. يا بني، خذ الخير من أهله، ودع الشر لأهله، وإذا قمت إلى صلاتك فصل صلاة مودع، وأنت ترى أن لا تصلي بعدها "أبدا".

وقال علي بن الحسن عليهما السلام لابنه: يا بني، إن الله لم يرضك لي فأوصاك بي، ورضيني لك فحذرني منك، واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة إلى التفريط فيه، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق له. وقال حكيم لابنه: يا بني، إن أشد الناس حسرة يوم القيامة رجل كسب مالا من غير حله فأدخله النار، وأورثه من عمل فيه بطاعة الله فأدخله الجنة.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كفوا الأذى، وابذلوا المعروف، واعفوا إذا قدرتم!، ولا تبخلوا إذا سئلتم، ولا تلحفوا إذا سألتم، فإنه من ضيق ضُيق عليه، ومن أعطى أخلف الله عليه. وقال الأشعث بن قيس لبنيه: "يا بني"، "لا" تذلوا في أعراضكم، وانخدعوا في أموالكم، ولتخف بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم، فإن لكل أمرئ تبعة؛ وإياكم وما يعتذر "منه" أو يستحى، فإنما يعتذر من ذنب، ويستحى من عيب؛ وأصلحوا المال لجفوة السلطان وتغير الزمان، وكفوا عند الحاجة عن المسألة، فإنه كفي بالرد منعا، وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزق قدرا، وامنعوا النساء من غير الأكفاء، فإنكم أهل بيت يتأسى بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم؛ وكونوا في عوام الناس ما لم يضطرب الحبل فإذا اضطرب الحبل، فالحقوا بعشائركم.

وكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله في غيبة غابها: أما بعد، فإن من اتقى الله وقاه، ومن اتكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه؛ فاجعل التقوى عمارة قلبك وجلاء بصرك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا خير لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له.

وكتب علي بن أبي طالب إلى ولده الحسن عليهما السلام: من علي أمير المؤمنين الوالد الفان، المقر للزمان، المستسلم للحدثان: المدبر العمر، المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام، ورهينة الأيام، وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وأسير المنايا، وقرين الرزايا، وصريع الشهوات، ونصب الآفات، وخليفة الأموات، أما بعد، يا بني، فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عني، وإقبال الآخرة إلي، وجموح الدهر على، ما يرغبني عن ذكر سواي، والاهتمام بما ورائي، غير أنه حين تفرد بي هم نفسي

دون هم الناس، فصدقني رأي "وصرفني عن هواي"، وصرح بي محض أمري، فأفضى بي إلى جد لا يزري به لعب، وصدق لا يشو به كذب، ووجدتك يا بني بغضي، بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئا لو أصابك لأصابني، وحتى كأن الموت لو أتاك أتاني، فعند ذلك عناني من أمرك ما عناني من أمر نفسي. كتبت إليك كتابي هذا يا بني "مستظهرا به" إن "أنا" بقيت "لك" أو فنيت، فإني موصيك بتقوى الله وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، فإن الله تعالى يقول: "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا" وأي سبب يا بني أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى "إن أنت أخذت به". أحي قلبك بالموعظة، ونوره بالحكمة، وأمنه بالزهد، وذلله بالموت، وقوه بالغنى عن الناس، وحذره صولة الدهر، وتقلب الأيام والليالي. واعرض عليه أخبار الصين، وسر في ديارهم وآثارهم فانظر ما فعلوه وأين حلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن دار الأحبة ونزلوا دار الغربة، وكأنك عن قليل يا بني قد صرت كأحدهم، فبع دنياك بآخرتك، ولا تبع آخرتك بدنياك؛ ودع القول فيما لا تعرف، والأمر فيما لا تكلف، وأمر بالمعروف بيدك ولسانك، وانه عن المنكر بيدك ولسانك، وباين من فعله؛ وخض الغمرات للحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم، واحفظ وصيتي ولا تذهب عنك صفحا، فلا خير في علم لا ينفع. واعلم "أن أمامك طريقا ذا مسافة بعيدة، ومشقة شديدة"، وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياد، مع بلاغك من الزاد. فإن أصبت من أهل الفاقة من يحمل عنك زادك فيوافيك به في معارك فاغتنمه، فإن أمامك عقبة كؤودا لا يجاوزها إلا أخف الناس حملا، فأجمل في الطلب،

وأحسن المكتسب، فرب طلب قد جر إلى حرب، وإنما المحروب من حرب دينه، والمسلوب من سلب يقينه. واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة، ولا فقر يعدل النار. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في النوادب والمراثي، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في النسب الذي هو سبب التعارف، وسلم إلى التواصل، به تتعاطف الأرحام الواشجة، وعليه تحافظ الأواصر القريبة. قال الله تبارك وتعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا". فمن لم يعرف النسب لم يعرف الناس، ومن لم يعرف الناس لم يعد من الناس. وفي الحديث: تعلموا من النسب ما تعرفون به أحسابكم وتصلون به أرحامكم. وقال عمر بن الخطاب: تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا وكذا.

أصل النسب

معاوية بن صالح عن يحيى عن سعيد بن المسيب، قال: ولد نوح ثلاثة أولاد: سام وحام ويافث. فولد سام العرب وفارس الروم، وولد حام السودان والبربر والنبط، وولد يافث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج.

أصل قريش

كانت قريش تدعى النضر بن كنانة، وكانوا متفرقين في بني كنانة، فجمعهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك من كل أوب إلى البيت، فسموا قريشا.

والتقرش: التجمع، وسمي قصى بن كلاب مجمعا، فقال فيه الشاعر:

قصـــي أبوكم كان يدعى مجمعا   بـه جمع الله القبـائـل من فهر

وقال حبيب:

غـدوا في نواحي نعشـــه وكأنما   قــريــش يــوم مــات مجــمــع

يريد بمجمع قصي بن كلاب، وهو الذي بنى المشعر الحرام، وكان يقوم عليه أيام الحج، فسماه الله مشعرا وأمر بالوقوف عنده.وإنما جمع قصي إلى مكة بني فهر بن مالك، فجذم قريش كلها فهر بن مالك، فما دونه قريش، وما فوقه عرب، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر، وأما قبائل قريش، فإنما تنتهي إلى فهر بن مالك لا تجاوزه. وكان قريش تسمى آل الله، وجيران الله، وسكان حرم الله، وفي ذلك يقول عبد المطلب ابن هاشم:

نحـــن آل الله في ذمـــتــه   لم نزل فيهـا على عهـد قـدم

إن لــلـبـيــت لـربا مــانـعــا   مــن يــرد فــيــه بإثم يخــترم

لم تــزل لله فــيــنــا حــرمــة   يــدفـع الله بهـا عـنـا الـنـقـم

وقال الحسن بن هانئ في بعض بني شيبة بن عثمان الذين بأيديهم مفتاح الكعبة:

إذا اشتعب الناس البيوت فأنتم   أولو الله والبيــت العتيق المحرم

نسب قريش

أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: تسمية من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالإسلام، عشرة رهط من عشرة أبطن وهم: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم. فكان من هاشم: العباس بن عبد المطلب، يسقي الحجيج في الجاهلية وبقى

له ذلك في الإسلام؛ ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب، كانت عنده العقاب راية قريش، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب، وإن لم يجتمعوا على أحد راسوا صاحبها فقدموه؛ ومن بني نوفل: الحارث بن عامر، وكانت إليه الرفادة، وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج؛ ومن بني عبد الدار: عثمان ابن طلحة، كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة، ويقال: والندوة أيضا في بني عبد الدار؛ ومن بني أسد: يزيد بن زمعة بن الأسود، وكان إليه المشورة، وذلك أن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافقه والاهم عليه وإلا تخير، وكانوا له أعوانا، واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف، ومن بني تيم: أبو بكر الصديق، وكانت إليه في الجاهلية الأشناق، وهي الديات والمغرم، فكان إذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه؛ ومن بني مخزوم: خالد ابن الوليد، كانت إليه القبة والأعنة، فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب؛ ومن بني عدي: عمر بن الخطاب، وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيرا، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به؛ ومن بني جمح: صفوان بن أمية، وكانت إليه الأيسار، وهي الأزلام، فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه؛ ومن بني سهم: الحارث بن قيس، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم.

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية، وهي السقاية والعمارة

والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والندوة واللواء والمشورة والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجرة إلى هؤلاء العشرة من هذه البطون العشرة على حال ما كانت في أوليتهم يتوارثون ذلك كابرا عن كابر، وجاء الإسلام فوصل ذلك لهم، وكذلك كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام وصله، فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر في بني هاشم. فأما السقاية فمعروفة، وأما العمارة فهو أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته، كان العباس ينهاهم عن ذلك. وأما حلوان النفر، فإن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحدا، فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرياسة، فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيرا كان أو كبيرا، فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجن.

فضل بني هاشم وبني أمية

قيل لعلي بن أبي طالب: أخبرنا عنكم وعن بني أمية؛ فقال: بنو أمية أنكر وأمكر وأفجر، ونحن أصبح وأنصح وأسمح. وسأل رجل الشعبي عن بني هاشم وبني أمية؛ فقال: إن شئت أخبرتك ما قال علي بن أبي طالب فيهم، قال: أما بنو هاشم فأطعمها للطعام، وأضربها للهام، وأما بنو أمية فأسدها حجرا، وأطلبها للأمر الذي لا ينال فينالونه. قيل لمعاوية: أخبرنا عنكم وعن بني هاشم، قال: بنو هاشم أشرف واحدا ونحن أشرف عددا، فما كان إلا كلا وبلى حتى جاءوا بواحدة بذت الأولين والآخرين، يريد النبي صلى الله عليه وسلم. وبقوله "أشرف واحدا": عبد المطلب بن هاشم.

جماعة بني هاشم بن عبد مناف وجماعة قريش عبد المطلب بن هاشم ولده عشر بنين، وهم: عبد الله أبو محمد صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب، والزبير، أمهم فاطمة بنت عمر المخزومية، والعباس وضرار، أمهما نتيلة النمرية، وحمزة والمقوم، أمهما هالة بنت وهب، وأبو لهب، أمه لبنى، خزاعية، والحارث، أمه صفية، من بني عامر بن صعصعة، والغيداق، أمه خزاعية.

جماعة بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف – وهو أمية الأكبر: حرب بن أمية، وأبو حرب، وسفيان، وأبو سفيان، وعمرو، وأبو عمرو وهؤلاء يقال لهم العنابس والعاصي وأبو العاصي، والعيص، وأبو العيص، وهؤلاء يقال لهم الأعياص، ومنهم معاوية بن أبي سفيان وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وسعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية.

جماعة بني نوفل – الحارث بن عامر صاحب الرفادة، ومطعم بن نوفل، ومنهم عدي بن الخيار بن نوفل، ومنهم نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل وهو كاتب المصاحف لعمر بن الخطاب، ومسلم بن قرظة، قتل يوم الجمل.

جماعة بني عبد الدار – عثمان بن طلحة صاحب الحجابة، وشيبة بن أبي طلحة، والحارث بن علقمة بن كلدة، كان رهينة قريش عند أبي يكسوم والنضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار. قتله النبي صلى الله عليه وسلم صبرا، أمر علي بن أبي طالب فقتله يوم الأثيل.

جماعة بني أسد بن عبد العزى – منهم: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، وأمه صفية بنت عبد المطلب، ويزيد بن زمعة بن الأسود، صاحب

المشورة، وأبو البختري، واسمه العاصي بن هشام بن الحارث بن أسد، وورقة ابن نوفل بن أسد وهو الذي أدرك الإيمان بعقله وبشر خديجة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

جماهير بني تيم بن مرة – منهم: أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيد الله، وعمر بن عبيد الله بن معمر، وعبد الله بن جدعان، وعلي بن يزيد ابن عبد الله بن أبي مليكة، والمهاجر بن قنفذ بن عمير بن جدعان، ومحمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير.

جماهير مخزوم بن مرة – منهم: المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وخالد بن الوليد بن المغيرة، وعبد الرحمن بن الحارث، وعمرو بن حريث، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وعياش بن أبي ربيعة الشاعر، وعبد الله بن المهاجر، وعمارة بن الوليد بن المغيرة، وإسماعيل بن هشام بن المغيرة، ولي ابنه هشام ابن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المدينة وضرب سعيد بن المسيب بن أبي وهب الفقيه.

جماهير عدي بن كعب – منهم: عمر بن الخطاب، وسعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل، وهو من أصحاب حراء، وعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، ولي الكوفة لعمر بن عبد العزيز، وسراقة بن المعتمر، والنحام بن عبد الله بن أسيد، والنعمان بن عدي بن نضلة. استعمله عمر على ميسان، وعبد الله بن مطيع، وأبو جهم بن حذيفة، وخارجة بن حذافة، وكان قاضيا لعمرو بن العاصي بمصر فقتله الخارجي وهو يظنه عمرو بن العاصي، وقال فيه: أردت عمرا وأراد الله خارجة.

جماهير جمح – منهم: صفوان بن أمية، من المؤلفة قلوبهم، وأمية بن خلف، قتل يوم بدر، وأبي بن خلف، ومحمد بن حاطب، وجميل بن معمر بن حذافة، وأبو عزة، وهو عمرو بن عبد الله، وأبو محذورة، مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم.

جماهير بني سهم – منهم: الحارث بن قيس، صاحب حكومة قريش، وعمرو بن العاصي، وقيس بن عدي وخنيس بن حذافة، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، ومنهم العاصي بن منبه، قتل مع أبيه، قتله علي يوم بدر، وأخذ سيفه ذا الفقار فصار إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

جماهير عامر بن لؤى – ومنهم: سهيل بن عمرو، من المؤلفة قلوبهم، ومنهم ابن أبي ذئب الفقيه، واسمه محمد بن عبد الرحمن، وحويطب بن عبد العزى، من المؤلفة قلوبهم، وعبد الله بن مخرمة، بدري، ونوفل بن مساحق، وأبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة الفقيه. وعبد الله بن أبي سرح، بدري. ومنهم: ابن أم مكتوم، مؤذن النبي عليه الصلاة والسلام.

جماهير بني محارب بن فهد بن مالك – منهم: الضحاك بن قيس الفهري، وحبيب بن مسلمة.

جماهير بني الحارث بن فهد بن مالك – منهم: أبو عبيدة بن الجراح، أمن هذ الأمة. وسهيل وصفوان ابنا وهب، وعياض بن غنم بن زهير، وأبو جهم بن خالد. وبنو الحارث هؤلاء من المطيبن الذي تحالفوا وغمسوا أيديهم في جفنة فيها طيب.

قريش الظواهر وغيرها من بطون قريش – بنو الحارث وبنو محارب ابنا

فهر بن مالك، وهم قريش الظواهر، لأنهم نزلوا حول مكة وما والاها. فمن بنى الحارث بن فهر: أبو عبيدة بن الجراح، واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح، من المهاجرين الأولين. ومن بني محارب بن فهر: الضحاك بن قيس الفهري، صاحب مرج راهط.

وما سوى هؤلاء من بطون قريش يقال لهم قريش البطاح، لأنهم سكنوا بطحاء مكة، وهم البطون العشرة التي ذكرناها قبل هذا الباب.

ومن بطون قريش:

بنو زهرة بن كلاب بن كعب بن لؤي. منهم: عبد الرحمن بن عوف، خال النبي عليه الصلاة والسلام؛ ومنهم بنو حبيب ابن عبد شمس. ومنهم عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس، صاحب العراق، ومنهم بنو أمية الاصغر بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه عبلة، فيقال لهم العبلات. وبنو عبد العزى بن عبد شمس، منهم أبو العاصي بن الربيع، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزوج ابنته التي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: ولكن أبا العاصي لم يذمم صهره. ومنهم: بنو المطلب بن عبد مناف، ومنهم محمد بن إدريس الشافعي. ومن بني نوفل بن عبد مناف: المطعم بن عدي. ولعبد شمس بن عبد مناف ونوفل بن عبد مناف يقول أبو طالب:

فيا أخوينا عبد شمس ونوفلا   أعيذ كما أن تبعثا بيننا حربا

وولد أمية الأكبر العاصي وأبا العاصي والعيص وأبا العيص، فهؤلاء يقال لهم الأعياص، وحربا وأبا حرب. وهذه البطون التي ذكرناها كلها من قريش ليست من البطون العشرة التي ذكرناها أولا وذكرنا جماهيرها.

فضل قريش

قال النبي عليه الصلاة والسلام: الأئمة من قريش. وقال: وقدموا قريشا ولا تقدموها. ولما قتل النضر بن الحارث بن كلدة بن عبد مناف، قال: لا يقتل قرشي صبرا بعد اليوم. يريد أنه لا يكفر قرشي فيقتل صبرا بعد هذا اليوم. الأصمعي قال: قال معاوية: أي الناس أفصح؟ فقال رجل من السماط: يا أمير المؤمنين، قوم ارتفعوا عن رتة العراق، وتياسروا عن كشكشة بكر، وتيامنوا عن شنشنة تغلب، ليست فيهم غمغمة قضاعة، ولا طمطمانية حمير؟ قال: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين؟ قال: صدقت؛ قال: فممن أنت؟ قال: من جرم. قال الأصمعي: وجرم فصحى العرب.

قدم محمد بن عمير بن عطارد في نيف وسبعين راكبا فاستزارهم عمرو بن عتبة.

قال: فسمعته يقول: يا أبا سفيان، ما بال العرب تطيل كلامها وأنتم تقصرونه معاشر قريش؟ فقال عمر وبن عتبة: بالجندل يرمى الجندل، إن كلامنا كلام يقل لفظه ويكثر معناه، ويكتفي بأولاه ويستشفي بأخراه، يتحدر تحدر الزلال على الكبد الحرى، ولقد نقصوا وأطال غيرهم فما أخلوا، ولله أقوام أدركتهم كأنما خلقوا لتحسين ما قبحت الدنيا، سهلت ألفاظهم كما سهلت عليهم أنفاسهم، فابتذلوا أموالهم وصانوا أعراضهم، حتى ما يجد الطاعن فيهم مطعنا، ولا المادح مزيدا، ولقد كان آل أبي سفيان مع قلتهم كثيرا منه نصيبهم، ولله در مولاهم حيث يقول:

وضع الدهر فيهم شفرتيه فمضى سالما وأمسوا شعوبا

شفرتان والله أفنتا أبدانهم، وأبقتا أخبارهم، فتركتاهم حديثا حسنا في الدنيا ثوابه في الآخرة احسن، وحديثا سيئا في الدنيا عقابه في الآخرة أسوأ، فيا موعوظا بمن قبله، موعوظا به من بعده، اربح نفسك إذا خسرها غيرك. قال: فظننت أنه أراد أن يعلمه أن قريشا إذا شاءت أن تتكلم تكلمت.

مكان العرب من قريش

يحيى بن عبد العزيز عن أبي الحجاج رياح بن ثابت عن أبكر بن، خنيس عن أبي الأحوص عن أبي الحصن عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قريش الجؤجؤ والعرب الجناحان، والجؤجؤ لا ينهض إلا بالجناحن. قال عمرو بن عتبة: ما آستدر لعمي كلام قط فقطعه حتى يذكر العرب بفضل أو يوصى فيهم بخير. ولقد أنشده مروان ذات يوم بيتا للنابغة حيث يقول:

فهم درعي التي آستلأمت فيها إلى يوم النســـــار وهم مجنى

فقال معاوبة: ألا إن دروع هذا الحي من قريش إخوانهم من العرب، المتشابكة أرحامهم تشابك حلق الدرع، التي إن ذهبت حلقة منه فرقت بين أربع، ولا تزال السيوف تكره مذاق لحوم قريش ما بقيت دروعها معها، وشدت نطقها عليها، ولم تفك حلقها منها، فإذا خلعتها من رقابها كانت للسيوف جزرا.

العتبي عن أبيه عن عمرو بن عتبة، قال: عقمت النساء أن يلدن مثل عمي، شهدته يوما وقد قدمت عليه وفود العرب، فقضى حوائجهم، وأحسن جوائزهم، فلما دخلوا عليه ليشكروه سبقهم إلى الشكر، فقال لهم: جزاكم

الله يا معشر العرب عن قريش أفضل الجزاء بتقدمكم إياهم في الحرب، وتقديمكم لهم في السلم، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم، أما والله لا يؤثركم على غيركم منهم إلا حازم كريم، ولا يرغب عنكم منهم إلا عاجز لئيم، شجرة قامت على ساق فتفرع أعلاها وآجتمع أصلها، عضد الله من عضدها. فيالها كلمة لو آجتمعت، وأيديا لو آئتلفت، ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده.

فضل العرب

يحيى بن عبد العزيز، قال حدثنا أبو الحجاج رياح – بن ثابت، قال حدثنا بكر بن خنيس عن أبي الأحوص عن أبي الحصين عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا سألتم الحوائج فاسألوا العرب، فإنها تعطى لثلاث خصال: كرم أحسابها، واستحياء بعضها من بعض، والمواساة لله. ثم قال: من أبغض العرب أبغضه الله.

ابن الكلبي قال: كانت في العرب خاصة عشر خصال لم تكن في أمة من الأمم، خمس منها في الرأس، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس: فالفرق والسواك والمضمضة والاستنثار وقص الشارب. وأما التي في الجسد: فتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان والاستنجاء. وكانت في العرب خاصة القيافة، لم يكن في جميع الأمم أحد ينظر إلى رجلين أحدهما قصير والآخر طويل، أو أحدهما أسود والآخر أبيض، فيقول: هذا القصير ابن هذا الطويل، وهذا الأسود ابن هذا الأبيض، إلا في العرب.

أبو العيناء الهاشمي عن القحذمي عن شبيب بن شيبة قال: كنا وقوفا

بالمربد – وكان المربد مألف الأشراف – إذ أقبل ابن المقفع فبششنا به وبدأناه بالسلام، فرد علينا السلام، ثم قال: لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل، فإن الذي تطلبونه لن تفاتوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه. فقبلنا وملنا، فلما استقر بنا المكان، قال لنا: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض، فقلنا: لعله أراد أصله من فارس، قلنا: فارس، فقال ليسوا بذلك، إنهم ملكوا كثيرا من الأرض، ووجدوا عظيما من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئا بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم بنفوسهم، قلنا: فالروم؛ قال: أصحاب صنعة، قلنا: فالصين؛ قال: أصحاب طرفة؛ قلنا: الهند؛ قال: أصحاب فلسفة؛ قلنا: السودان، قال: شر خلق الله؛ قلنا: الترك؛ قال: كلاب ضالة، قلنا: الخزر، قال: بقر سائمة؛ قلنا: فقل؛ قال: العرب. قال فضحكنا. قال: أما إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتنى حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، ولا آثار أثرت، أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم، يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصيرحجة، ويحسن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في أنفسهم حتى رفع "الله" لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، ختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم. فقال "تعالى": "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده

والعاقبة للمتقين". فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان.

ذكر الأصمعي عن ذي الرمة، قال: رأيت عبدا أسود لبني أسد قدم علينا من شق اليمامة، وكان وحشيا لطول تعزبه في الإبل، وربما كان لقي الأكرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن إلي، ثم قال لي: يا غيلان، لعن الله بلادا ليس فيها قريب، وقاتل الله الشاعر حيث يقول: حر الثرى مستغرب التراب وما رأيت هذه العرب في جميع الناس إلا مقدار القرحة في جلد الفرس، ولولا أن الله رق عليهم فجعلهم في حشاه؛ لطمست هذه العجمان آثارهم. والله ما أمر الله نبيه بقتلهم إلا لضنه بهم، ولا ترك قبول الجزية "منهم" لا لتركها لهم. الأكرة: جمع أكار، وهم الحراث. وقوله: جعلهم في حشاه، أي آستبطنهم، يقول الرجل للعربي إذا آستبطنه: خبأتك في حشاي. وقال الراجز:

وصاحب كالدمل الممد جعلته في رقعة من جلدي

وقال آخر:

لقد كنت في قوم عليك أشحة بحبك إلا أن ما طاح طائح
يودون لو خاطوا عليك جلودهم ولا يدفع الموت النفوس

قول الشعوبية وهم أهل التسوية

ومن حجة الشعوبية على العرب أن قالت: إنا ذهبنا إلى العدل والتسوية، وإلى أن الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد، واحتججنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام: المؤمنون إخوة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم. وقوله في حجة الوداع – وهي خطبته التي ودع فيها أمته وختم بها نبوته: أيها الناس، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى. وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم". فأبيتم إلا فخرا، وقلتم لا تساوينا العجم، وإن تقدمتنا إلى الإسلام، ثم صلت حتى تصير كأحناء، وصامت حتى تصير كأوتار، ونحن نسامحكم ونجيبكم إلى الفخر بالآباء الذي نهاكم عنه نبينا ونبيكم صلى الله عليه وسلم إذ أبيتم إلا خلافه، وإنما نجيبكم إلى ذلك لاتباع حديثه وما أمر به صلى الله عليه وسلم فنرد عليكم حجتكم في المفاخرة ونقول: أخبرونا إن قالت لكم العجم: هل تعدون الفخر كله أن يكون ملكا أو نبوة؟ فإن زعمتم أنه ملك قالت لكم: فإن لنا ملوك الأرض كلهم من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة؛ والقياصرة، وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي سخرت له الإنس والجن والطير والريح، وإنما هو رجل منا، أم. هل كان لأحد مثل ملك الإسكندر الذي ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها، وبنى ردما من حديد ساوى به بين الصدفين وسجن وراءه خلقا من الناس تربي على خلق الأرض كلها

كثر ة. يقول الله عز وجل: "حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون". فليس شيء أدل على كثر عددهم من هذا، وليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره في الأرض، ولو لم يكن له إلا منارة الإسكندرية التي أسهها في قعر البحر وجعل في رأسها مرآة يظهر البحر كله في زجاجتها لكفى، وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم إلى عمر بن عبد العزيز: من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، والذي تحته بنت ألف ملك والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران ينبتان العود والفوه والجوز والكافور، والذي يوجد ريحه علي اثنى عشر ميلا، إلى ملك العرب الذي لايشرك بالله شيئا. أما بعد، فإني أردت ان تبعث إلي رجلا يعلمني الإسلام ويوقفني على حدوده والسلام. وإن زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة، فإن منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ماخلا أربعة: هودا وصالحا وإسماعيل ومحمدا، ومنا المصطفون من العالمين: آدم، ونوح، وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر، فنحن الأصل وأنتم الفرع، وإنما أنتم غصن من أغصاننا، فقولوا بعد هذا ما شئتم وادعوا، ولم تزل للأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض ملوك تجمعها، ومدائن تضمها، وأحكام تدين بها، وفلسفة تنتجها، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات، مثل صنعة الديباج وهي أبدع صنعة، ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة، ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل، ومثل فلسفة الروم في ذات الخالق، والقانون، والأسطرلاب، الذي يعدل به النجوم، ويدرك به علم الأبعاد ودوران الأفلاك، وعلم الكسوف. ولم يكن للعرب ملك يجمع سوادها، ويضم قواصيها، ويقمع ظالمها، وينهي سفيهها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة،

ولا أثر في فلسفة، إلا ما كان من الشعر، وقد شاركتها فيه العجم، وذلك أن للروم أشعارا عجيبة قائمة الوزن والعروض. فما الذي تفخر به العرب على العجم، وإنما هي كالذئاب العادية، والوحوش النافرة، يأكل بعضها بعضا، ويغير بعضها على بعض، فرجالها موثوقون في حلق الأسر، ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل، فإذا أدركهن الصريخ فاستنقذن بالعشي، وقد وطئن كما توطأ الطريق المهيع، فخر بذلك الشاعر فقال: وألحق ركب المردفات عشية.

فقيل له: ويحك، وأي فخر لك في أن تلحقهن بالعشى وقد نكحن وامتهن.

وقال جرير يعير بني دارم بغلبة قيس عليهم يوم رحرحان:

وبرحرحان غداة كبل معبد ... نكحت نساؤكم بغير مهور

وقال عنترة لامرأته:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ... إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

وأنا امرؤ إن يأخذوني عنوة ... اقرن إلى سير الركاب وأجنب

ويكون مركبك القعود ورحله ... وابن النعامة عند ذلك مركبي

أراد بابن النعامة: باطن القدم. وسبى ابن هبولة الغساني آمرأة الحارث بن عمرو الكندي، فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة وقد كان نال منها، فقال لها: هل كان أصابك؟ قالت: نعم والله، فما اشتملت النساء على مثله، فأوثقها بين فرسين، ثم استحضرهما حيث قطعاها، وقال في ذلك:

كل أنثى وإن بدالك منها ... آية الود عهدها خيتعور

إن من غره النساء بود بعد هند لجاهل مغرور

وسبت بنو سليم ريحانة أخت عمرو بن معد يكرب فارس العرب، فقال فيها عمرو:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

وفيها يقول:

إذا لم تستطع أمرا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وأغار الحوفزان على بني سعد بن زيد مناة، فاحتمل الزرقاء من بني ربيع بن الحارث فأعجبته وأعجبها، فوقع بها، ثم لحقه قيس بن عاصم، فاستنقذها وردها إلى أهلها بعد أن وقع بها. فهذا كان شأن العرب والعجم في جاهليتها، فلما أتى الله بالإسلام كان للعجم شطر الإسلام، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأحمر والأسود من بني آدم، وكان أول من تبعه حر وعبد، واختلف الناس فيهما، فقال: قوم: أبو بكر وبلال، وقال قوم: علي وصهيب. ولما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قدم صهيبا على المهاجرين والأنصار، فصلى بالناس وقيل له: استخلف؛ فقال: ما أجد من أستخلف، فذكر له الستة من أهل حراء، فكلهم طعن عليه، ثم قال: لو أدركت سالما مولى أبي حذيفة حيا لما شككت فيه.

رد ابن قتيبة على الشعوبية

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب: وأما أهل التسوية فإن منهم قوما أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث، فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه، فذهبوا إلى قوله عز وجل: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، وقوله: "إنما المؤمنون

إخوة فأصلحوا بين أخويكم"، وإلى قول النبي عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع: أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء، ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب. وقوله: المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وإنما المعنى في هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الأحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة، ولو كان الناس كلهم سواء في أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة، لم يكن في الدنيا شر يف ولا مشروف، ولا فاضل ولا مفضول. فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم؛ وقوله صلى الله عليه وسلم في قيس بن عاصم: هذا سيد الوبر. وكانت العرب تقول: لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا. وتقول: لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف وأخيار، فإذا جملوا كلهم جملة واحدة هلكوا. وإذا ذمت العرب قوما قالوا: سواسية كأسنان الحمار. وكيف يستوي الناس في فضائلهم، والرجل الواحد لا تستوي في نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله، ولكن لبعضها الفضل على بعض، وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس. وقالوا: القلب أمير الجسد، ومن الأعضاء خادمه ومنها مخدومه. قال ابن قتيبة: ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام، وبقول النبي عليه الصلاة والسلام: لا تفضلوني عليه فإنما أنا حسنة من حسناته؛ ثم فخرهم بالأنبياء أجمعين، وأنهم من العجم غير أربعة: هود وصالح وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، واحتجوا بقول الله عز وجل: "إن الله اصطفي آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل

عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم". ثم فخروا بإسحاق بن إبراهيم، وأنه لسارة وأن إسماعيل لأمة تسمى هاجر. وقال شاعرهم:

في بلدة لم تصل عكل بها طنبا ولا خباء ولا عك وهمدان
ولا لجرم ولا بهراء من وطن لكنها لبني الأحرار أوطان
أرض يبني بها كسرى مساكنه فما بها من بني اللخناء إنسان

فبنو الأحرار عندهم العجم، وبنو اللخناء عندهم العرب، لأنهم من ولد هاجر، وهي أمة. وقد غلطوا في هذا التأويل، وليس كل أمة يقال لها اللخناء، إنما اللخناء من الإماء الممتهنة في رعي الإبل وسقيها وجمع الحطب. وإنما أخذ من اللخن، وهو نتن الريح، يقال: لخن السقاء، إذا تغير ريحه. فأما مثل التي طهرها الله من كل دنس، وارتضاها للخليل فراشا، وللطيبين إسماعيل ومحمد أما، وجعلهما لها سلالة، فهل يجوز لملحد فضلا عن مسلم أن يسميها لخناء.

رد الشعوبية على ابن قتيبة

قال بعض من يرى رأي الشعوبية فيما يرد به على ابن قتيبة في تباين الناس وتفاضلهم، والسيد منهم والمسود: إننا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلهم، ولا السيد منهم ولا المسود، ولا الشريف ولا المشروف، ولكنا نزعم أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا بأحسابهم، ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم، وبعد هممهم، ألا ترى أنه من كان دنيء الهمة، ساقط المروءة، لم يشرف وإن كان من بني هاشم في ذؤابتها، ومن أمية في أرومتها، ومن قيس في أشرف بطن منها إنما الكريم من كرمت أفعاله،

والشريف من شرفت همته، وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، وقوله في قيس بن عاصم: هذا سيد أهل الوبر. إنما قال فيه هذا لسؤدده في قومه بالذب عن حريمهم، وبذله رفده لهم، ألا ترى أن عامر بن الطفيل، وكان في أشرف بطن في قيس، يقول:

وإني وإن كنت ابن سـيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب

فما سـودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وقال قيس بن ساعدة: لأقضين بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا يردها أحد بعدي، أيما رجل رمى رجلا بملأمة دونها كرم فلا لؤم عليه، وأيما رجل أدعي كرما دونه لؤم فلا كرم له. ومثله قول عائشة أم المؤمنين: كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به تعني بقولها: أن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها، فإذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته، وإذا لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته.

باب المتعصبين للعرب

قال أصحاب العصبية من العرب:

لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا إحسان إلا استنقاذنا له من الكفر وإخراجنا له من دار الشرك إلى دار الإيمان كما في الأثر: إن قوما يقادون إلى حظوظهم بالسواجير. وكما قالوا: عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل. يريد إخراجهم من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، لكفي. على أنا تعرضنا للقتل فيهم. فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك، فالله أمرنا بقتالكم، وفرض علينا جهادكم، ورغبنا في مكاتبتكم. وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلا من أهل الموالي يصلي به، فقالوا له في ذلك؛ فقال: إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه. وكان نافع بن جبير هذا إذا مرت به جنازة قال: من هذا؟ فإذا قالوا: قرشي؛ قال: واقوماه! وإذا قالوا: عربي؛ قال: وابلدتاه! وإذا قالوا: مولى؛ قال: هو مال الله يأخذ ما شاء، ويدع ما شاء. قال: وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى. وكانوا لا يكنونهم بالكنى، ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يقدمونهم في الموكب، وإن حضروا طعاما قاموا على رؤوسهم، وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان، لئلا يخفي على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم يصلون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب، وإن كان الذي يحضر غريرا. وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يخطبها إلى مواليها، فإن رضي

زوج وإلا رد، فإن زوج الأب والأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح، وإن كان قد دخل بها، وكان سفاحا غير نكاح.

وقال زياد: دعا معاوية الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال: إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد طعنت على السلف وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطرا وأدع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق، فما ترون؟ فقال الأحنف: أرى أن نفسي لا تطيب، يقتل أخي لأمي وخالي ومولاي! وقد شاركناهم وشاركونا في النسب، فظننت أني قد قتلت عنهم، وأطرق. فقال سمرة بن جندب: أجعلها إلي أيها الأمير، فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ إلى ما تريد منه. فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر. قال الأحنف: فقمنا عنه وأنا خائف، وأتيت أهلي حزينا. فلما كان بالغداة أرسل إلي، فعلمت أنه أخذ برأيي وترك رأي سمرة.

كتاب الواسطة في الخطب

قال أبو عمر، أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الأجوبة وتباين الناس فيها على قدر عقولهم ومبلغ فطنهم، وحضور أذهانهم بم ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الخطب التي يتخير لها الكلام، وتفاخرت بها العرب في مشاهدهم، ونطقت بها الأئمة على منابرهم، وشهرت بها في، وقامت بها على رؤوس خلفائهم، وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم، ووصلتها بصلواتهم، وخوطب بها العوام، واستجزلت لها الألفاظ، وتخيرت لها المعاني: أعلم أن جميع الخطب على ضربين: منها الطوال، ومنها القصار؛ ولكل ذلك موضع يليق به، ومكان يحسن فيه. فأول ما نبدأ به من ذلك خطب النبي صلى الله عليه وسلم ثم السلف المتقدمين، ثم الجلة من التابعين، والجلة من الخلفاء الماضين، والفصحاء المتكلمين، على ما سقط إلينا، ووقع عليه اختيارنا؛ ثم نذكر بعض خطب الخوارج، لجزالة ألفاظهم، وبلاغة منطقهم، كخطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا، فإنها معدومة النظير، منقطعة القرين، وخطبة أبي حمزة التي سمعها مالك بن أنس، فقال: خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة شكك فيها المستبصر، ورد بها المرتاب؟ ثم نسمح بصدر من خطب البادية وقول الأعراب خاصة، لمعرفتهم بداء الكلام ودوائه، وموارده ومصادره.

قال عبد الملك بن مروان لخالد بن سلمة القرشي المخزومي من أخطب الناس؟ قال: أنا؟ قال: ثم من؟ قال: أنا؟ قال: ثم من؟ قال: شيخ جذام –

يعني روح بن زنباع – قال؟ ثم من؟ قال: أخيفش ثقيف – يعني الحجاج –؛ قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين.

وقال معاوية لما خطب الناس عنده فأكثروا: والله لأرمينكم بالخطيب المصقع، قم يا زياد. وقال محمد كاتب المهدي – وكان شاعرا راوية، وطالبا للنحو علامة –، قال: سمعت أبا دواد يقول: وجرى شيء من ذكر الخطب وتحبير الكلام، فقال: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق في غير أهل البادية نقص، والنظر في عيون الناس عي، ومسح اللحية هلك، والخروج عما بني عليه الكلام إسهاب. قال: وسمعته يقول: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه. وأنشدني بيتا له في خطباء إياد:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

مر بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر يستمع، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد، أو يكون رجلا من النظارة. فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا، واطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تنميقه وتحبيره، فيها: خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة، من لفظ شريف، ومعنى بديع، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة، والمجاهدة بالتكليف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا، كما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه؛

وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف؛ ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما. وكن في ثلاث منازل: وإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إما عند الخاصة، إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة، إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، على أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام. فقال له إبراهيم بن جبلة: جعلت فداك، أنا أحوج إلى تعلمي هذا الكلام من هؤلاء الغلمة.

خطبة رسول الله في حجة الوداع

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد، أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي

هذا في موقفي هذا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت، اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما، ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإنالزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق، السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادي وشعبان، ألا هل بلغت، اللهم أشهد. أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوار لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة فلا

يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه، ألا هل بلغت، اللهم أشهد. فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم أشهد. أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم؟ قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس، إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وخطب أبو بكر يوم السقيفة

أراد عمر الكلام، فقال له أبو بكر؟ على رسلك، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال؟ أيها الناس، نحن المهاجرون أول الناس إسلاما، وأكرمهم أحسابا، وأوسطهم دارا، وأحسنهم وجوها، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان. فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو، آويتم وآسيتم، فجزاكم الله خيرا، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

خطب عمر بن الخطاب

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، تعلموا القرآن واعملوا به تكونوا من أهله، إنه لم يبلغ حق مخلوق أن يطاع في معصية الخالق. إلا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وإلي اليتيم: إن استغنيت عففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، تقرم البهمة الأعرابية: القضم لا الخضم.

وخطب أيضا:

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل! عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له خازنا وقاسما. إني بادىء بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابي، ثم بالأنصار الذين تبؤءوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، وجمن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء. فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته. إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي، فابتليت بكم وابتليتم بي، وإني لن يحضرني من أموركم شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فلئن أحسنوا لأحسنن إليهم، ولئن أساءوا لا نكلن بهم.

وخطب أيضا:

فقال: الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، فهدانا به من الضلالة، وجمعنا به من الشتات، وألف

بين قلوبنا، ونصرنا على عدونا، ومكن لنا في البلاد، وجعلنا به إخوانا متحابين. فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها، فإن الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم. وإياكم والعمل بالمعاصي، وكفر النعمة، فقلما كفر قوم بنعمة ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط عليهم عدوهم. أيها الناس، إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة وجمع كلمتها وأظهر فلجها ونصرها وشرفها، فاحمدوه عباد الله على نعمه، واشكروه على آلائه. جعلنا الله وإياكم من الشاكرين.

خطبة لعثمان بن عفان

ولما ولي عثمان بن عفان قام خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، وتشهد، ثم أرتج عليه، فقال. أيها الناس، إن أول كل مركب صعب، هان أعش فستأتيكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسرا.

خطبة أمير المؤمنين علي

أول خطبة خطبها بالمدينة، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم قال: أيها الناس، كتاب الله وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم أما بعد، فلا يدعين مدع إلا على نفسه، شغل من الجنة والنار أمامه. ساع نجا، وطالب يرجو، ومقمر في النار، ثلاثة، واثنان: ملك طار بجناحيه، ونبي أخذ الله بيديه، لا سادس. هلك من اقتحم، وردي من هوى اليمين والشمال مضلة، والوسطى الجادة. منهج عليه أم الكتاب والسنة وآثار النبوة. إن الله داوى هذه الأمة بدواءين: السوط والسيف، لا هوادة عند الإمام فيهما. استتروا ببيوتكم، واصلحوا فيما بينكم، فالموت من ورائكم.

من أبدى صفحته للحق هلك. قد كانت أمور لم تكونوا فيها محمودين. أما إني لو أشاء أن أقول لقلت. عفا الله عما سلف. سبق الرجلان ونام الثالث كالغراب همته بطنه، ويله! لو قص جناحاه وقطع رأسه لكان خيرا له. انظروا فإن أنكرتم فانكروا، وإن عرفتم فاعرفوا. حق وباطل، ولكل أهل، ولئن كثر الباطل لقديما فعل ولئن قل الحق لربما ولعل، ولقلما أدبر شيء فاقبل، ولئن رجعت إليكم أموركم إنكم لسعداء، وإني لأخشى أن تكونوا في فتر، وما علينا إلا الاجتيهاد. وروى فيها جعفر بن محمد رضوان الله عليه: ألا إن الأبرار عترتي، وأطايب أرومتي؛ أحلم الناس صغارا، وأعلم الناس كبارا. ألا وإنا أهل البيت من علم الله علمنا، وبحكم الله حكمنا، ومن قول صادق سمعنا، فإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا. معنا راية الحق، من يتبعها لحق، ومن تأخر عنها غرق. ألا وبنا ترد ترة كل مؤمن، وبنا تخلع ربقة الذل من أعناقكم، وبنا فتح الأمر وبنا يختم.

وخطبة له أيضا:

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ولزوم طاعته، وتقديم العمل، وترك الأمل، فإنه من فرط في عمله، لم ينتفع بشيء من أمله. أين التعب بالليل والنهار، والمقتحم للجج البحار، ومفاوز القفار؛ يسير من وراء الجبال، وعالج الرمال؛ يصل الغدو بالرواح، والمساء بالصباح، في طلب محقرات الأرباح؛ هجمت عليه منيته، فعظمت بنفسه رزيته؛ فصار ما جمع بورا، وما اكتسب غرورا، ووافى القيامة محسورا. أيها اللاهي الغاز نفسه، كأني بك وقد أتاك رسول ربك، لا يقرع لك بابا، ولا يهاب لك حجابا؟ ولا يقبل منك بديلا، ولا يأخذ منك كفيلا؛ ولا يرحم لك صغيرا،

ولا يوقر فيك كبيرا؛ حتى يؤديك إلى قعر مظلمة، أرجاؤها موحشة، كفعله بالأمم الخالية، والقرون الماضية. أين من سعى واجتهد، وجمع وعدد، وبنى وشيد، وزخرف ونجد، وبالقليل لم يقنع، وبالكثير لم يمتع؟ أين من قاد الجنود، ونشر البنود؛ أضحوا رفاتا، تحت الثرى أمواتا، وأنتم بكأسهم شاربون، ولسبيلهم سالكون. عباد الله، فاتقوا الله وراقبوه، واعملوا لليوم الذي تسير فيه الجبال، وتشقق السماء بالغمام، وتطاير الكتب عن الأيمان والشمائل. فأي رجل يومئذ تراك؟ أقائل: هاؤم اقرءوا كتابيه؟ أم: يا ليتني لم أوت كتابيه؟ نسأل من وعدنا بإقامة الشرائع جنته أن يقينا سخطه. إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

خطب عمر بن عبد العزيز

قالت العتبي: أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله: أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم، وأصلحوا أخرتكم تصلح دنياكم؛ وإن امرئ ليس بينه وبين آدم أب حي لمعرق في الموت.

وخطبة له رحمه الله

إن لكل سفر زادا لا محالة، فتزودوا من دنياكم لأخرتكم التقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه، فترهبوا وترغبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله، ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد إمسائه، أو يمسي بعد إصباحه، وربما كانت بين ذلك خطرات المنايا، وإنما يطمئن إلى الدنيا من أمن عواقبها، فإن من يداوي من

الدنيا كلما أصابت جراحة من ناحية أخرى، فكيف يطمئن إليها، أعوذ بالله إن أمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيلتي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق. ثم بكى وبكى الناس معه.

خطبة لعمر بن عبد العزيز أيضا

شبيب بن شيبة عن أبي عبد الملك قال: كنت من حرس الخلفاء قبل عمر، فكنا نقوم لهم ونبدؤهم بالسلاح. فخرج علينا عمر رضي الله عنه في يوم عيد وعليه قميص كتان وعمامة على قلنسوة لاطئة، فمثلنا بين يديه وسلمنا عليه، فقال: مه، أنتم جماعة وأنا واحد، السلام علي والرد عليكم؟ وسلم، فرددنا، وقربت له دابته فأعرض عنها ومشى، ومشينا، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم، حتى نستوي نحن بهم، وأكون أنا أولهم. ثم قال: ما لي وللدنيا؛ أم مالها ومالي؛ وتكلم فأرق حتى بكى الناس جميعا، يمينا وشمالا. ثم قطع كلامه ونزق! فدنا منه رجاء بن حيوة، فقال له: يا أمير المؤمنين، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم، ثم قطعته أحوج ما كانوا إليه. فقال: يا رجاء، إني أكره المباهاة.

باب تفاضل البلدان

الأصمعي يرفعه إلى قتادة قال: الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ، فبلد السودان منها اثنا عشر ألف فرسخ، وبلد الروم ثمانية آلاف فرسخ، وبلد الفرس ثلاثة آلاف فرسخ، وبلد العرب ألف.

الأصمعي قال: جزيرة العرب ما بين نجران إلى العذيب، وقال غيره: أرض العرب ما بين بحر القلزم وبحر الهند.

قالوا: وسواد البصرة: الأهواز، وفارس. وسواد الكوفة: كسكر إلى الزاب إلى عمل حلوان إلى القادسية، وهذه كلها من عمل العراق.

وعمل العراق من هيث إلى الصين، والهند، والسند، ثم كذلك إلى الري، وخراسان كلها إلى بلد الديلم، والجبال. وأصفهان سرة العراق، وافتتحها أبو موسى الأشعري. والجزيرة ليست من عمل العراق. وهي ما بين الدجلة والفرات والموصل من الجزيرة. ومكة والمدينة ومصر ليست من عمل العراق.

الأصمعي قال: البصرة كلها عثمانية، والكوفة كلها علوية، والشام كلها أموية، والجزيرة خارجية، والحجاز سنية. وإنما صارت البصرة عثمانية من يوم الجمل، إذ قاموا مع عائشة وطلحة والزبير فقتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقيل لرجل من أهل البصرة: أتحب عليا؟ قال: كيف أحب رجلا قتل من قومي من لدن كانت الشمس هكذا إلى أن صارت هكذا ثلاثين ألفا.

والكوفة علوية؛ لأنها وطن علي رضي الله عنه وداره. والشام أموية؛ لأنها مركز ملك بني أمية وبيضتهم. والجزيرة خارجية؛ لأنها مسكن ربيعة. وهي رأس كل فتنة، وأكثرها نصارى وخوارج، ومنازلهم الخابور وهو واد، بالجزيرة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لبني تغلب: يا خنازير العرب. والله لئن صار هذا الأمر إلي لأضعفن عليكم الجزية.

وقال هارون الرشيد ليزيد بن مزيد: ما أكثر الخلفاء في ربيعة. قال: بلى، ولكن منابرهم الجذوع.

الأعمش عن سليم: قال: ذكر عمر بن الخطاب الكوفة، فقال: جمجمة العرب، وكنز الإيمان، ورمح الله في الأرض، ومادة الأمصار.

علي بن محمد المديني قال: الكوفة جارية حسناء تصنع لزوجها، فكلما رآها سرته.

وقال محمد بن عمير بن عطارد: الكوفة سفلت عن الشام ورباها. وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهي مرية مريعة عذبة برية، وإذا أتتها الشمال هبت على مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءتها بريح السواد وورده وياسمينه وأتراجه، فماؤها عذب، وعيشها خصب.

قال ابن عياش الهمداني لأبي بكر الهذلي عن أبي العباس، وذكرت عنده الكوفة والبصرة، فقال: إنما مثل الكوفة مثل اللهاة من البدن يأتيها الماء ببرده وعذوبته، ومثل البصرة مثل المثانة يأتيها الماء بعد تغير وفساد.

وقال الحجاج: الكوفة بكر حسناء، والبصرة عجوز بخراء، أوتيت من كل حلى وزينة.

وقال جعفر بن سليمان: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، وداري عين المربد.

وقال الأصمعي: تذاكروا عند زياد الكوفة والبصرة. فقال زياد: لو أضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها.

وقال حذيفة: أهل البصرة لا يفتحون باب هدى، ولا يغلقون باب ضلالة، وقد رفع الطاعون عن جميع أهل الأرض إلا عن أهل البصرة.

ومما نقم على أهل الكوفة أنهم أغدر الناس. طعنوا الحسن بن علي، وانتهبوا عسكره، وخذلوا الحسين بن علي بعد أن استدعوه حتى قتل.

وشكوا سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، وزعموا أنه لا يحسن أن يصلي، فدعا عليهم أن لا يرضيهم الله عن وال، ولا يرضي واليا عنهم.

وقد دعا عليهم علي بن أبي طالب فقال: اللهم ارمهم بالغلام الثقفي. يعني الحجاج بن يوسف.

وشكوا عمار بن ياسر والمغيرة بن شعبة، وطردوا سعيد بن العاص، وخذلوا زيد بن علي. وادعى النبوة منهم غير واحد، منهم المختار بن أبي عبيد. وكتب إلى الأحنف: بلغني أنكم تكذبونني وتكذبوا رسلي، وقد كذبت الأنبياء من قبلي ولست بخير من كثير منهم.

وقيل لعبد الله بن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه. قال: صدق، الشياطين يوحون إلى أوليائهم.

ولما أرادت سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم الرحيل من الكوفة إلى المدينة بعد قتل زوجها المصعب حف بها أهل الكوفة، وقالوا: أحسن الله صحابتك يا ابنة رسول الله. فقالت: لا جزاكم الله خيرا من قوم، ولا أحسن الخلافة عليكم، قتلتم أبي وجدي وأخي وعمي وزوجي، أيتمتموني صغيرة وأيمتموني كبيرة.

ولما دخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل المصعب، أقبل إليه جماعة من هؤلاء، قالوا: أمراؤك أهل الكوفة. قال: قتلة عثمان؟ قالوا: نعم وقتلة علي! قال: هذه بهذه.

قدم عبد الله بن الكواء على معاوية، فقال: أخبرني عن أهل البصرة، قال: يقبلون معا ويدبرون شتى. قال: فأخبرني عن أهل الكوفة. قال: أنظر الناس في صغيرة وأوقفهم في كبيرة. قال: فأخبرني عن أهل المدينة. قال: أحرص الناس على الفتنة وأعجزهم عنها. قال: فأخبرني عن أهل مصر. قال: لقمة آكل. قال: فأخبرني عن أهل الجزيرة. قال: كناسة بين حشين. قال: فأخبرني عن أهل الشام، قال: جند أمير المؤمنين، ولا أقول فيهم شيئا. قال: لتقولن. قال: أطوع خلق الله لمخلوق وأعصاهم للخالق، ولا يخشون في السماء ساكنا.

قتادة قال: قيست البصرة في زمن خالد بن عبد الله القسري، فوجدوا طولها فرسخين وعرضها فرسخين.

الأصمعي قال: قال ابن شهاب الزهري: من قدم أرضا فأخذ من ترابها فجعله في مائها ثم شربه عوفي من وبائها.

الأصمعي قال: دخلت الطائف فكأني كنت أبشر، وكان قلبي ينضح بالسرور، وما أجد لذلك علة إلا انفساح جوها، وطيب نسيمها.

ودخل سليمان بن عبد الملك الطائف، فنظر إلى بيادر الزبيب فقال: ما تلك الجرار السود؟ قيل له: ليست بجرار يا أمير المؤمنين، ولكنها بيادر الزبيب. فقال: لله در قسي، في أي عش أودع أفراخه؟ يريد بقسي ثقيفا. كذلك كان اسمه.

الأصمعي قال: من أمثال العامة يقولون: حمى خيبر، وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة، وطواعين الشام.

الأصمعي قال: ذكروا أن في باب سمرقند مكتوبا: بين هذه المدينة وبين صنعاء ألف فرسخ.

قال الأصمعي: وبين بغداد وأفريقية ألف فرسخ، وبين الكوفة والبصرة ثمانون فرسخا، وواسط بينهما متوسطة، ولذلك سميت واسطا.

كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب

فرش الكتاب

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان والنتف، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الطعام والشراب اللذين بهما نمو الغراسة، وهما قوم الأبدان، وعليهما بقاء الأرواح.

قال المسيح عليه الصلاة والسلام في الماء: هذا أبي، وفي الخبز، هذا أمي. يريد أنهما يغذيان الأبدان كما يغذيها الأبوان.

وهذا الكتاب جزآن، جزء في الطعام، وجزء في الشراب. فالذي في الطعام منهما متقص جميع ما يتم ويتصرف به أغذية الطعام، من المنافع والمضار، وتعاهد الأبدان بما يصلحها من ذلك في أوقاته، وضروب حالاته واختلاف الأغذية مع اختلاف الأزمنة بما لا يخلي المعدة وما لا يكظها، فقد جعل الله لكل شيء قدرا.

والذي في الشراب منهما مشتمل على صفوف الأشربة، وما اختلف الناس فيه من الأنبذة، ومحمود ذلك ومذمومه، فإنا نجد النبيذ قد أجازه قوم صالحون، وكرهه قوم صالحون.

وقد وضعنا لكل شيء من ذلك باب، فيحتاط كل رجل لنفسه بمبلغ تحصله، ومنتهى نظره، فإن الرائد لا يكذب أهله.

الوشيقة من اللحم، وهو أن يغلى إغلاءة ثم يرفع، يقال منه وشقت أشق وشقا، قال الحسن بن هانئ:

حتى رفعنا قدرنا بضرامها   واللحم بين موذم وموشق

والصفيف مثله، ويقال: هو القديد، يقال: صففته أصفة صفا.

والربيكة: شيء يطبخ من بر وتمر، ويقال: منه ربكته أربكه ربكا.

والبسيسة: كل شيء خلطته بغيره، مثل السويق بالأقط، ثم تلته بالسمن أو بالزيت، أو مثل الشعير بالنوى للإبل، يقال: بسسته أبسه بسا.

والعبيثة: بالعين غير معجمة: طعام يطبخ ويجعل فيه جراد، وهو الغثيمة أيضا.

والبغيث والعليث: الطعام المخلوط بالشعير. فإذا كان فيه الزؤان فهو المعلوث.

والبكيلة والبكالة جميعا: وهي الدقيق يخلط بالسويق، ثم يبل بماء أو سمن أو زيت، يقال: بكلته أو أبكله، بكلا.

والفريقة: شيء يعمل من اللبن.

فإذا قطعت اللحم صغارا قلت: كتفته تكتيفا.

أبو زيد قال: إذا جعلت اللحم على الجمر قلت: حسحسته، وهو أن تقشر عنه الرماد بعد أن يخرج من الجمر. فإذا أدخلته النار ولم تبالغ في طبخه قلت: ضهبته، وهو مضهب.

والمضيرة سميت بذلك لأنها طبخت باللبن الماضر، وهو الحامض والهريسة لأنها تهرس. والعصيدة لأنها تعصد أي تلوى، واللفيتة لأنها تلفت.

والفالوذ: وهو السرطراط. ومن أسماء الفالوذ أيضا: السريط، لأنه يسترط مثل يزدرد. ويقال: "لا تكن حلوا فتسترط، ولا مرا فتعقي".

يقال: أعقى الشيء: اشتدت مرارته.

الرغيدة: اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط فيلعق لعقا.

الحريرة: الحساء من الدسم والدقيق.

والسخينة: حساء كانت تعمله قريش في الجاهلية، فسميت به، قال حسان:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها   وليغلبن مغالب الغلاب

والعكيس: الدقيق يصب عليه الماء ثم يشرب: قال منظور الأسدي:

ولما سقيناها العكيس تمذحت   خصواصرها وازداد رشحا

تمذحت، أي انتفخت.

أسماء الطعام

الوليمة: طعام العرس. والنقيعة: طعام الإملاك. والإعذار: طعام الختان. والخرس: طعام الولادة. والعقيقة: طعام سابع الولادة. والنقيعة: طعام يصنع عند قود الرجل من سفره؛ يقال: أنقعت إنقاعا. والكيرة: طعام يصنع عند البناء يبنيه الرجل في داره. والمأدبة: كل طعام يصنع لدعوة، يقال: آدبت أودب إيدابا. وأدبت أدبا. قال طرفة:

نحن في المشـــتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر

الآداب: صاحب المأدبة. والجفلى: دعوة العامة. والنقري: دعوة الخاصة.

والسلفة: طعام يتعلل به قبل الغداء. والقفي: الطعام الذي يكرم به الرجل، يقال منه: قفوته فأنا أقفوه قفوا. والقفاوة: ما يرفع من المرق للإنسان، قال الشاعر:

ونقفي وليد الحي إن كان جائعا ونحســـبه إن كان ليس بجائع

صفة الطعام

قال النبي صلى الله عليه وسلم: أكرموا الخبز فإن الله سخر له السموات والأرض. وكلوا سقط المائدة.

وقال الحسن البصري: ليس في الطعام سرف، وتلا قوله تعالى: "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا".

وقال الأصمعي: الكبادات أربعة: العصيدة، والهريسة، والحيس، والسميذ.

أبو حاتم: والسويق طعام المسافر، والعجلان، والحزين والنفساء، وطعام من لا يشتهي الطعام.

أبو حاتم، عن الأصمعي قال: قال أبو صوارة: الأرز الأبيض بالسمن المسلي والسكر الطبرزذ ليس من طعام أهل الدنيا.

وقال مالك بن أنس، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن: أكل الخبيص يزيد في الدماغ.

وقال الحسن لفرقد السبخي: بلغني أنك لا تأكل الفالوذج! قال: يا أبا سعيد أخاف أن لا أؤدي شكره! قال: يا لكع، وهل تؤدي شكر الماء البارد في الصيف، والحار في الشتاء؟ أما سمعت قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما كسبتم".

وسمع الحسن رجلا يعيب الفالوذج، فقال: لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن، ما عاب هذا مسلم.

وقال رجل في مجلس الأحنف: ما شيء أبغض إلي من الزبد والكمأة. فقال الأحنف: "رب ملوم لا ذنب له".

وقيل لشريح القاضي: أيهما أطيب، اللوزينق أو الجوزينق؟ فقال: لا أحكم على غائب! ولد لعبد الرحمن بن أبي ليلى غلام فصنع الأخبصة، ودعا الناس، وفيهم مساور الوراق، فلما أكلوا قال مساور الوراق:

من لم يـدمم بالثريـد سـبـالنـا   بعـد الخبيص فلاهنـاه الفـارس

الرقاشي قال: أخبرنا أبو هفان أن رقبة بن مصقلة طرح نفسه بقرب حماد الراوية في المسجد، فقال له حماد: ما لك؟ قال: صريع فالوذج. قال له حماد: عند من؟ فطالما كنت صريع سمك مملوح خبيث. قال: عند حكم في الفرقة وفصل في الجماعة. قال: وما أكلتم عنده؟ قال: أتانا بالأبيض المنضود، والملوز المعقود، والذليل الرعديد، والماضي المودود.

محمد بن سلام الجمحي قال: قال بلال بن أبي بردة، وهو أمير على البصرة للجاوود بن أبي سبرة الهذلي: أتحضر طعام هذا الشيخ؟ يعني عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، قال: نعم. قال: فصفه لي. قال: نأتيه فنجده

متصحبا، يعني نائما، فنجلس حتى يستيقظ، فيأذن لنا فنساقطه الحديث، فإن حدثناه أحسن الاستماع، وإن حدثنا أحسن الحديث، ثم يدعو بمائدته، وقد تقدم إلى جواريه وأمهات أولاده أن لا تلطفه واحدة منهن إلا إذا وضعت مائدته، ثم يقبل خبازه، فيمثل بين يديه، فيقول: ما عندك اليوم؟ فيقول: عندي كذا عندي كذا، فيعدد كل ما عنده، ويصفه، يريد بذلك أن يحبس كل رجل نفسه وشهوته على ما يريد من الطعام، وتقبل الألطاف من هاهنا وهاهنا، وتوضع على المائدة، ثم يؤتى بثريدة شهباء من الفلفل، رقطاء من الحمص، ذات حفافين من العراق، فنأكل معه، حتى إذا ظن أن القوم قد كادوا يمتلئون جثا على ركبتيه، ثم استأنف الأكل معهم. فقال أبو بردة: لله در عبد الأعلى، ما أربط جأشه على وقع الأضراس.

وحضر أعرابي طعام عبد الأعلى، فلما وقف الخباز بين يديه ووصف ما عنده قال: أصلحك الله، أتأمر غلامك يسقيني ماء؟ فقد شبعت من وصف هذا الخباز.

وقال له عبد الأعلى يوما: ما تقول يا أعرابي لو أمرت الطباخ فعمل لون كذا، ولون كذا؟ قال: أصلحك الله لو كانت هذه الصفة في القرآن لكانت موضع سجود.

أبو عبيدة قال: مر الفرزدق بيحيى بن المنذر الرقاشي فقال له: هل لك أبا فراس في جدي رضيع، ونبيذ صليب منشراب الزبيب؟ قال: وهل يأبى هذا إلا ابن المراغة.

وقال الأحوص لجرير لما قدم المدينة: ماذا ترى أن نعد لك؟ قال: شواء وطلاء، وغناء. قال: قد أعد لك.

باب آداب الأكل والطعام

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الأكل في السوق دناءة".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، ويشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله".

وقال صلى الله عليه وسلم: "سموا إذا أكلتم، واحمدوا إذا فرغتم". وكان يلطع أصابعه بعد الطعام.

وقال صلى الله عليه وسلم: "الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر، وبعد الطعام ينفي اللمم".

ومن الأدب في الوضوء أن يبدأ صاحب البيت فيغسل يديه قبل الطعام، ويقدم أصحابه بعد الطعام.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة.

وقال صلى الله عليه وسلم: "املكوا العجين فإنه أحد الريعين".

وكان فرقد يقول لأصحابه: إذا أكلتم فشدوا الإزار على أوساطكم، وصغروا اللقم، وشدوا المضغ، ومصوا الماء، ولا يحل أحدكم إزاره فيتسع معاه، ويأكل كل واحد ما بين يديه.

وقالوا: كان ابن هبيرة يباكر الغداء، فسئل عن ذلك فقال: إن فيه ثلاث خصال: أما الواحدة: فإنه ينشف المرة، والثانية: أنه يطيب النكهة، والثالثة: أنه يعين على المروءة. فقيل له: وكيف يعين على المروءة؟ قال: إذا خرجت

من بيتي وقد تغديت، لم أتطلع إلى طعام أحد من الناس.

البطنة وقولهم فيها

قالوا: البطنة تذهب الفطنة.

وقال مسلمة بن عبد الملك لأليون، ملك الروم: ما تعدون الأحمق فيكم؟ قال: الذي يملأ بطنه من كل ما وجد.

وحضر أبو بكرة سفرة معاوية ومعه ولده عبد الرحمن، فرآه يلقم لقما شديدا، فلما كان بالعشي راح إليه أبو بكرة، فقال له معاوية: ما فعل ابنك التلقامة؟ قال: اعتل. قال: مثله لا يعدم العلة.

ورأى أبو الأسود الدؤلي رجلا يلقم لقما منكرا، فقال: كيف اسمك؟ قال: لقمان، قال: صدق الذي سماك.

ورأى أعرابي رجلا سمينا، فقال له: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك.

وقعد أعرابي على مائدة المغيرة، فجعل ينهش ويتعرق، فقال المغيرة: يا غلام، ناوله سكينا. قال الأعرابي: كل امرئ سكينه في رأسه.

قال أعرابي: كنت أشتهي ثريدة دكناء من الفلفل، رقطاء من الحمص، ذات جفافين من العراق، فأضرب فيها كما يضرب الولي السوء في ما اليتيم.

وقال أعرابي:

ألا ليت لي خبزا تسربل رائبا ... وخيلا من البرني فرسانها الزبد

فأطلب فيما بينهن شهادة ... بموت كريم لا يعد له لحد

واصطحب شيخ وحدث من الأعراب في سفر، وكان لهما قرص في كل يوم، وكان الشيخ مخلع الأضراس، وكان الحدث يبطش بالقرص ثم يقعد يشكو العشق، والشيخ يتضور جوعا، وكان يسمى جعفرا، فقال الشيخ فيه:

لقد رابني من جعفر أن جعفرا   يطيش بقرصي ثم يبكي على
فقلت له لو مسك الحب لم تبت   بطينا ونساك الهوى شدة الأكل

الأصمعي قال: تقول العرب في الرجل الأكول: إنه برم قرون.

البرم: الذي يأكل مع الجماعة ولا يجعل شيئا. والقرون: الذي يأكل تمرتين تمرتين ويأكل أصحابه تمرة تمرة. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القرآن.

وكان عبد الله بن الزبير إذا قدم التمر إلى أصحابه قال عبد الله بن عمر: إياكم والقران، فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه.

وقيل لبسرة الأحول: كم تأكل كل يوم؟ قال: من مالي أو من مال غيري؟ قيل له: من مالك. قال: مكوكا. قيل: فمن مال غيرك، قال: اخبزوا واطرحوا.

وقال رجل من أهل العراق في قينة حفص الكاتب:

قينة حفص ويلها   فيها خصال عشره
أولها أن لها   وجها قبيح المنظره
ودارها في وهدة   أوسع منها القنطره
تأكل في مقعدها   ثورا وتخرى بقره

قال تأبط شرا: ما أحببت شيئا قط حبي ثلاثة: أكل اللحم، وركوب اللحم، وحك اللحم باللحم.

وقال أبو اليقظان: كان هلال بن الأسعر التميمي أكولا، فيزعمون أنه أكل جملا، وأكلت امرأته فصيلا، فلما أراد أن يجامعها لم يصل إليها، فقالت له: وكيف تصل إلي وبيني وبينك بعيران.

وكان الواثق واسمه هارون بن محمد بن هارون أكولا، وكان مفتونا بحب الباذنجان، وكان يأكل في أكلة واحدة أربعين باذنجانة، فأوصى إليه أبوه – وكان ولي عهده – ويلك متى رأيت خليفة أعمى؟ فقال للرسول: أعلم أمير المؤمنين أني تصدقت بعيني جميعا على الباذنجان.

وكان سليمان بن عبد الملك من الأكلة، حدث العتبي عن أبيه عن المشردل وكيل عمرو بن العاص قال: لما قدم سليمان الطائف دخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب وابنه بستانا لعمرو بن العاص فجال فيه ساعة، ثم قال: ناهيكم بمالكم هذا مالا، ثم ألقى صدره على غصن، وقال: ويلك يا شمردل ما عندك شيء تطعمني؟ قال: بلى إن عندي جديا كانت تغدو عليه بقرة وتروح عليه أخرى. قال: عجل به. قال: فأتيته به كأنه عكة سمن، فأكله وما دعا عمر ولا ابنه، حتى إذا بقي الفخذ قال: هلم أبا حفص. قال: إني صائم. فأتى عليه، ثم قال: ويلك يا شمردل، ما عندك شيء تطعمني؟ قال: بلى والله عندي خمس دجاجات هنديات كأنهن رئلان النعام. قال: فأتيت بهن فكان يأخذ برجلي الدجاجة فيلقي عظامها نقية حتى أتى عليهن، ثم قال: يا شمردل، ما عندك شيء تطعمني؟ قلت: بلى والله، إن عندي

حريرة كأنها قراضة الذهب. فقال: عجل بها. فأتيته بعس يغيب فيه الرأس، فجعل يلاطمها بيديه ويشرب، فلما فرغ تجشأ فكأنما صاح في جب، ثم قال: يا غلام، أفرغت من غدائي؟ قال: نعم. قال: وما هو؟ قال: ثمانون قدرا، قال: ائتني بها قدرا قدرا، قال: فأكثر ما أكل من كل قدر ثلاث لقم، وأقل ما أكل لقمة، ثم مسح يده واستلقى على فراشه، ثم أذن للناس ووضعت المائدة وقعد فأكل مع الناس، فما أنكرت من أكله شيئا.

وقال الأصمعي: كنت يوما عند هارون الرشيد، فقدمت إليه فالوذجة، فقال: يا أصمعي. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: حدثني بحديث مزرد أخي الشماخ. قلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن مزردا كان رجلا جشعا نهما، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد عليه، وكان ذلك مما يضريه ويحفظه، فذهبت يوما في بعض حقوق أهلها وخلفت مزردا في بيتها ورحلها، فدخل الخيمة فأخذ صاعين من دقيق، وصاعا من عجوة، وصاعا من سمن، فضرب بعضه ببعض فأكله، ثم أنشأ يقول:

ولما مضت أمي تزور عيالها	أغرت على العكم الذي كان
خلطت بصاعي حنطة صاع	إلى صاع سمن فوقه يتريع
ودبلت أمثال الأثافي كأنها	رؤوس رخال قطعت لا تجمع
وقلت لبطني أبشري اليوم إنه	حمى أمنا مما تفيد وتجمع
فإن كنت مصفورا فهذا دواؤه	وإن كنت غرثانا فذا يوم تشبع

قال: فاستضحك هارون حتى أمسك على بطنه واستلقى على ظهره، ثم قعد فمد يده، وقال: خذ، فذا يوم تشبع يا أصمعي.

وقال حميد الأرقط، وهو الذي يقال له: "هجاء الأضياف"، يصف أكل الضيف:

تجهز كفاه ويحدر حلقه إلى الزور ما ضمت عليه الأنامل
أتانا وما ساواه سحبان وائل بيانا وعلما بالذي هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العي لما أن تكلم باقل

والأكلة كلهم يعيبون الحمية، ويقولون: الحمية إحدى العلتين.

الحمية وقولهم فيها

قيل: من احتمى فهو على يقين من المكروه، وفي شك من العافية.

وقالوا: الحمية للصحيح ضارة، وللعليل نافعة.

قيل لبقراط: مالك تقل الأكل جدا؟ قال: إني إنما آكل لأحيا، وغيري يحيا ليأكل.

وأجمعت الأطباء على أن رأس الداء كله إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: احذروا إدخال اللحم على اللحم، فإنه ربما قتل السباع في القفر. وأكثر العلل كلها إنما يتولد من فضول الطعام.

والحمية مأخوذة عن النبي صلى الله عليه وسلم: رأى صهيبا يأكل تمرا وبه رمد، فقال: "أتأكل تمرا وأنت أرمد؟".

وقال عليه الصلاة والسلام: "لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم".

وقيل للحارث بن كلدة طبيب العرب: ما أفضل الدواء؟ قال: الأزم.

يريد قلة الأكل. ومنه قيل للمجاعة: الأزمة، وللكثير أزمات.

وقيل لآخر: ما أفضل الدواء؟ قال: أن ترفع يدك عن الطعام وأنت تشتهيه.

أبو الأشهب عن أبي الحسن قال: قيل للمنذر بن جندب: إن ابنك أكل طعاما كظله حتى كاد يقتله. قال: لو مات ما صليت عليه.

ودعا عبد الملك بن مروان رجلا إلى الغداء، فقال: ما في فضل يا أمير المؤمنين. قال: لا خير في الرجل يأكل حتى لا يكون فيه فضل.

وقال الأحنف بن قيس: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، فإني أبغض الرجل أن يكون وصافا لبطنه وفرجه.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأدواء أطيب؟ قال: الجوع ما ألقيت إليه من شيء قبله.

وقال رجل من أهل الشام، لرجل من أهل المدينة: عجبت منكم، أن فقهاءكم أظرف من فقهائنا، ومجانينكم أظرف من مجانيننا، قال: أوتدري من أين ذلك؟ قال: لا أدري. قال: من الجوع، ألا ترى أن العود إنما صفا صوته لما خلا جوفه.

وقال الجاحظ: كان أبو عثمان الثوري يجلس ابنه معه يوم الرأس، وكان له يوم معروف يأكل فيه رأسا لا محالة، وكان يجلس ابنه معه: ويقول: إياك يا بني ونهم الصبيان، وأخلاق النوائح، ونهش الأعراب، وكل مما يليك، واعلم أنه إذا كان في الطعام لقمة كريمة، أو مضغة شهية، أو شيء مستطرف، فإنما ذلك للشيخ المعظم، أو للصبي المدلل، ولست بواحد منهما. وقد قالوا:

مدمن اللحم كمدن الخمر. أي بني، عود نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نهش السباع، ولا تخضم خضم البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال، فإن الله جعلك إنسانا، فلا تجعل نفسك بهيمة. واحذر صرعة الكظة، وسرف البطنة، فقد قال بعض الحكماء: إذا كنت نهما فعد نفسك من الزمنى، واعلم أن الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، وأن السقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره.

أي بني، والله ما أدى الركوع والسجود ذو كظة، ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم مصحة، والوجبات عيش الصالحين.

أي بني؛ لأمر ما طالت أعمار أهل الهند، وصحت أبدان العرب، ولله در الحارث بن كلدة، إذ زعم أن الدواء هو الأزم، فالداء كله من فضول الطعام، فكيف لا ترغب في شيء يجمع لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح الدين والدنيا، والقرب من عيش الملائكة؟ أي بني، لم صار الضب أطول عمرا، إلا لأنه يتبلغ بالنسيم؟ ولم قال الرسول عليه الصلاة والسلام: إن الصوم وجاء؟ إلا لأنه جعله حجازا دون الشهوات؟ فافهم تأديب الله عز وجل، وتأديب رسوله عليه الصلاة والسلام.

أي بني، قد بلغت تسعين عاما ما نقص لي سن، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت ذنين أنف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد. فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك.

سياسة الأبدان بما يصلحها

قال الحجاج بن يوسف للباذون طبيبه: صف لي صفة آخذ بها نفسي ولا أعدوها. قال له: لا تتزوج من النساء إلا شابة، ولا تأكل اللحم إلا فتيا، ولا تأكله حتى تنعم طبخه، ولا تشرب دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، ولا تأكل طعاما إلا أجدت مضغه، وكل ما أحببت من الطعام، واشرب عليه، فإذا شربت فلا تأكل، ولا تحبس الغائظ ولا البول، وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة.

قيل ليهود خيبر: بم صححتم على وباء خيبر؟ قالوا: بأكل الثوم، وشرب الخمر، وسكنى اليفاع، وتجنب بطون الأودية، والخروج من خيبر عند طلوع النجم وعند سقوطه.

وقال قيصر لقس بن ساعدة: صف لي مقدار الأطمعة. فقال: الإمساك عن غاية الإكثار، والبقيا على البدن عند الشهوة. قال: فما أفضل الحكمة؟ قال: معرفة الإنسان قدره. قال: فما أفضل العقل؟ قال: وقوف الإنسان عند منتهى علمه.

وسأل عبد الملك بن مروان أبا المفوز: هل أتخمت قط؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دققنا، ولا نكظ المعدة ولا نخليها.

وقيل لبزر جمهر: أي وقت فيه الطعام أصلح؟ قال: أما لمن قدر فإذا جاع ولمن لم يقدر فإذ وجد.

وقال: أربع يهدمن العمر، وربما قتلن: الحمام على البطنة، والمجامعة على الامتلاء، وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق.

وقال إبراهيم النظام: ثلاثة أشياء تفسد العقل: طول النظر في المرآة، والاستغراق في الضحك، ودوام النظر في البحر.

الأصمعي قال: جمع هارون من الأطباء أربعة: عراقيا، وروميا، وهنديا، ويونانيا، فقال: ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معه. فقال العراق: الدواء الذي لاداء معه حب الرشاد الأبيض. وقال الهندي: الإهليلج الأسود. وقال الرومي: الماء الحار، وقال اليوناني – وكان أطبهم – حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة، والماء الحار يرخي المعدة، والإهليلج الأسود يرق المعدة، لكن الدواء الذي لا داء معه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه.

تدبير الصحة

ثم نذكر بعد هذا من وصف الطعام وحالاته، وما يدخل على الناس من ضروب آفاته، بابا في تدبير الصحة التي لا تقوم الأبدان إلا به، ولا تنمى النفوس إلا عليه.

وقد قال الشافعي: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان. ولم نجد بدا – إذ كانت جملة هذه المطاعم التي بها نمو الغراسة، وعليها مدار الأغذية تضر في حالة، وتنفع في أخرى – من ذكر ما ينفع منها ومقدار نفعه، وما يضر منها ومبلغ ضره، وأن نحكم على كل ضرب منها بالأغلب عليه من طباعه، وقلما نجد شيئا ينفع في حالة إلا وهو يضر في الأخرى، ألا ترى أن

الغيث الذي جعله الله رحمة لخلقه، وحياة لأرضه، قد يكون منه السيول المهلكة، والخراب المجحف؟ وأن الرياح التي سخرها الله مبشرات بين يدي رحمته، قد أهلك باه قوما وانتقم بها من قوم؟

قال خالد بن صفوان لخادمه: أطعمينا جبنا، فإنه يشهي الطعام، ويهيج المعدة، وهو حمض العرب. قال: ما عندنا منه شيء. فقال: لا عليك، فإنه يقدح الأسنان، ويشد البطن.

ولما كانت أبدان الناس دائمة التحلل، لما فيها من الحرارة الغريزية من داخل، وحرارة الهواء المحيط بها من خارج، احتاجت إلى أن يخلف عليها ما تحلل، واضطرت بذلك إلى الأطعمة والأشربة، وجعلت فيها قوة الشهوة ليعلم بها وقت الحاجة منها إليها، ومقدار ما يتناول منها، والنوع الذي يحتاج إليه، ولأنه لا يخلف الشيء الذي يتحلل ولا يقوم مقامه إلا مثله، وليس تستطيع القوة التي تحيل الطعام والشراب في بدن الإنسان أن تحيل إلا ما شاكل البدن وقاربه. فإذا كان هذا هكذا، فلا بد لمن أراد حفظ الصحة أن يقصد لوجهين: أحدهما أن يدخل على البد الأغذية الموافقة لما يتحلل منه، والآخر أن ينفي عنه ما يتولد فيه من فضول الأغذية.

ما يصلح لكل طبيعة من الأغذية

وينبغي لك أن تعرف اختلاف طبائع الأبدان وحالاتها، لتعرف بذلك موافقة كل نوع من الأطعمة لكل صنف الناس. وذلك أن الأغذية مختلفة، فمنها معتدلة، كالتي يتولد منها الدم الخالص النقي، ومنها غير معتدلة، كالتي يتولد منها البلغم والمرة الصفراء والسوداء، والرياح الغليظة، ومنها لطيفة،

ومنها غليظة، ومنها ما يتولد منه كيموس لزج، وكيموس غير لزج ومنها ما له خاصة منفعة أو مضرة في بعض الأعضاء دون بعض. فقد يجب متى كان المستولي على البدن الدم النقي أن تكون أغذيته قصدا في قدرها، معتدلة في طبائعها. ومتى كان الغالب عليه البلغم، فيجب أن تكون مسخنة أو يغتذي بما يزيد في الحرارة، ويقمع الرطوبة. ومتى كان الغالب عليه المرة السوداء، فينبغي له أن يغتذي بالأغذية الحارة الرطبة. ومتى كان الغالب عليه المرة الصفراء، فيغتذى بالأغذية الباردة الرطبة، ومتى كان البدن مستحصفا عسر التحلل، فينبغي أن يغتذى بأغذية يسيرة لطيفة جافة، ومتى كان متخلخلا فينبغي له أن يتعذى بأغذية لزجة، لكثرة ما يتحلل من البدن.

فهذا التدبير ينبغي أن يلتزم، ما لم يكن في بعض أعضاء البدن ألم، فينبغي أن يستعمل النظر في الأغذية الموافقة للعضو الألم، لأنا ربما اضطررنا إلى استعمال ما يوافق العضو الآلم إن كان مخالفا لسائر البدن، كما أنه لو كانت الكبد باردة ضيقة المجاري، احتجنا إلى استعمال الأغذية اللطيفة، وتجنب الأغذية الغليظة، وإن كان سائر البدن غير محتاج إليها لضعف أو نحافة، لئلا تحدث الطبيعة في الكبد سددا، وربما كانت الكبد حارة فتحذره الأغذية الحلوة، وإن احتاج إليها، لسرعة استحالتها إلى المرة الصفراء. وربما كانت المعدة ضعيفة، فتحتاج إلى ما يقويها من الأغذية، وربما كان يولد الطعام فيها بلغما، فتحتاج إلى ما يقمع الصفراء، وإلى تجنب الأشياء المولد لها. وربما كان الطعام يبقى على رأس المعدة طافيا، فيستعمل الأغذية الغليظة الراسية ليتثقل بثقلها إلى أسفل المعدة، وتأمره بحركة يسيرة بعد الطعام، لينحط الطعام عن رأس المعدة. وربما كان رأس المعدة حارا قابلا للحار فيتجنب الأغذية الحارة، وإن احتاج إليها سائر البدن.

الحركة والنوم مع الطعام

وينبغي ألا يقتصر على ما ذكرنا دون النظر في مقدار الحركة قبل الطعام، والنوع بعده، فمتى كانت الحركة قبل الطعام كثيرة، غذيناه بأغذية كثيرة غليظة لزجة إلى اليبس ما هي، بطيئة التحلل، ولم نأمره بالحمية، لقلة الحاجة إليها. ومتى لم تكن قبل الطعام حركة، أو كانت يسيرة، فينبغي ألا يقتصر على الحمية، بقلة الطعام ولطافته، دون أن يستعين على تخفيف ما يتولد في البدن من الفضول باستفراغ الأدوية المسهلة، وبالحمام، وبإخراج الدم. ومتى كانت الحركة كافية، استعملنا الأغذية المعتدلة في كثرتها، وقد لطافتها وغلظها. ومت كان النوم بعد الطعام كثيرا احتجنا إلى استعمال أغذية كثيرة غزيرة الغذاء، لطول الليل، وكثرة النوم، ومتى كان النوم قليلا احتجنا إلى الطعام القليل الخفيف اللطيف، كالذي يغتذي به في الصيف، لقصر الليل وقلة النوم.

تقدير الطعام وما يقدر منه وما يؤخر

ويجب في الطعام أن يقدر فيه اربعة أنحاء:

أولها ملاءمة الطعام لبدن المغتذي به في الوقت الذي يعتذي به فيه، كما ذكرنا آنفا: أنه متى كان الغالب على البدن الحرارة احتاج إلى الأغذية البادرة. ومتى كان الغالب عليه البرد احتاج إلى الأغذية الحارة، ومتى كان معتدلا احتاج إلى الأغذية المعتدلة المشاكلة له.

والنحو الثاني: تقدير الطعام بأن يكون على مقدار قوة الهضم، لأنه وإن كان في نفسه محمودا وكان ملائما للبدن، وكان أكثر من قد احتمال قوة الهضم، ولم يستحكم هضمه، تولد منه غذاء رديء.

والنحو الثالث: تقديم ما ينبغي أن يقدم من الطعام، وتأخير ما ينبغي أن يؤخر منه، ومثل ذلك أنه ربما جمع الإنسان في أكلة واحدة طعاما يلين البطن، وطعما يحبسه. فإن هو قدم الملين وأتبعه الآخر سهل انحدار الطعام منه، ومتى قدم الطعام الحابس وأتبعه الملين لم ينحدر وفسدا جميعا. وذلك أن الملين حال فيما بينه وبين النزول الطعام الحابس، فبقي في المعدة بعد انهضامه، ففسد به الطعام الآخر. ومتى كان الطعام الملين قبل الحابس انحدر الملين بعد انهضامه، وسهل الطريق لانحدار الحابس. وكذلك أيضا إن جمع أحد في أكلة واحدة طعاما سريع الانهضام وآخر بطيء الانهضام، فينبغي له أن يقدم البطيء الانهضام ويتبعه السريع الانهضام، ليصير البطيء في قعر المعدة؛ لأن قعر المعدة أسخن، وهو أقوى على الهضم، لكثرة ما فيه من أجزاء اللحم المخالطة له، وأعلى المعدة عصبي بارد لطيف ضعيف الهضم. ولذلك إذا طفا الطعام على رأس المعدة لم ينهضم.

والنحو الرابع: أن من يتناول الطعام الثاني بعد انحدار الأول، وقد قدم قبله حركة كافية، وأتبعه بنوم كاف، استمرأه. ومن أخذ وقد بقي في معدته أو أمعائه بقية من الطعام الأول غير منهضمة، فسد الطعام الثاني ببقية الأول.

باب الحركة والنوم مع الطعام

ومن أكل الطعام بعد حركة كافية، وأخذه على حاجة من البدن إليه، وافى الطعام الحرارة الغريزية بمنزلة النار إذا اشتعلت. ومن تناول طعاما من غير حركة وأخذه على غير حاجة من البدن إليه وافى الطعام الحرارة الغريزية

خامدة، بمنزلة النار الكامنة في الزناد. ومن اتبع الطعام بنوم بطنت الحرارة الغريزية فيه، فاجتمعت في باطن البطن، فهضمت طعامه. ومن اتبع الطعام بحركة انحدر عن معدته غير منهضم، وابنث في العروق غير مستحكم، فأحدث سددا وعللا في الكبد والكلى وسائر الأعضاء. وربما كانت الأطعمة لضعف المعدة تطفو فيها وتصير في أعلاها، فلا نأمره بالنوم حتى ينحدر الطعام على المعدة بعض الانحدار، حتى يصير في قعر المعدة. وربما أمرنا بحركة يسيرة كما ذكرنا آنفا لانحدار الطعام عن المعدة بعض الانحدار.

وإن أكثر الشراب منع الطعام من الانهضام، لأنه يحول فيما بين جرم المعدة وبين الطعام، وإذا لم تلق المعدة الطعام لم تحله إلى مشاكلة البدن وموافقته، فيبقى فيها غير منهضم، فيجب لذلك على من أخذ الطعام أن يتناول معه من الشراب ما يسكن به جل العطش ويصبر على قدر احتماله من العطش، ويصبر حتى ينهضم، ثم يتناول بعد ذلك من الشراب ما أحب، فإنه عند ذلك يعين على انحدار الطعام وترقيقه، لتنفيذه في المجاري الدقاق. ويجب أيضا أن يكون أخذه للطعام في وقت حركة الشهوة. وذلك أنه إذا تحركت الشهوة ولم يبادر بأخذ الطعام اجتذبت المعدة من فضول البدن ما صار في المعدة أبطل الشهوة، وأفسد الطعام إذا خالطه.

الأوقات التي يصلح فيها الطعام

أجود الأوقات كلها الطعام: الأوقات الباردة، لجمعها الحرارة في باطن البدن، فأما الأوقات الحارة فينبغي أن يتجنب أخذ الطعام فيها، لأن حرارة الهواء تجذب الحرارة الباطنة الغريزية إلى ظاهر البدن ويخلو منها باطنه،

فتضعف الحرارة في باطن البدن عن هضمه، فلذلك كانت القدماء تفضل العشاء على الغداء، لما يلحق العشاء من اجتماع الحرارة في باطن البدن، لبرد الليل والنوم، ولأن الحرارة في النوم تبطن وتسخن باطن البدن ويبرد ظاهره، واليقظة على خلاف ذلك، لأن الحرارة تنتشر في ظاهر البدن وتضعف في باطنه.

والذي يحتاج إلى كثرة الغذاء من الناس من كان الغالب على بدنه الحرارة، وكانت كبده لحرارتها سريعة التوليد للمرة الصفراء، فلذلك يحتاج إلى الأطعمة الغليظة البطيئة الانهضام ويستمرئها، ويستمرئ لحم البقر، ولا يستمرئ لحم الدجاج وما أشبهه من الأطعمة الخفيفة. ولا يصلح شيء من هذه إلا في وقت تحرك الشهوة، فإنه أفضل وقت يؤخذ فيه الطعام. وللعادة في هذا حظ عظيم، ألا ترى أنه من اعتاد الغداء فتركه واقتصر على العشاء عظم ضرر ذلك عليه، ومن كانت عادته أكلة واحدة فجعلها أكلتين لم يستمرئ طعامه؟ ومن كانت عادته أن يجعل طعامه في وقت من الأوقات، فنقله إلى غير ذلك الوقت أضر ذلك به، وإن كان قد نقله إلى وقت محمود. فيجب لذلك أن يتبع العادة إذا تقادمت فطالت، وإن كانت ليست بصواب، إذا لم يحدث شيء اضطره إلى نقلها، لأن العادة طبيعة ثانية، كما ذكر الحكيم أبقراط. فإن حدث شيء يدعوه إلى الانتقال عنها فأوفق الأمور في ذلك أن ينتقل عنها قليلا قليلا. وللشهوة أيضا في استمراء الطعام أعظم الحظ، لأنها دليل على الموافقة والملاءمة، فمتى كان طعامان مستويان في الجودة، وكانت شهوة المحتاج إليهما أميل إلى أردئهما، اخترناه على الأجود، إذا لم نخف منه ضررا أكثر مما ينال منه من المنفعة، لحسن قبول المعدة له

واستمرائها إياه. فقد بان أنه يحتاج في حسن استعمال الأغذية وجودة تخير الأطعمة إلى معرفة اختلاف الطبائع وحالاتها. فقد بينت اختلاف طبائع الأبدان وحالاتها، وما يجب على كل واحد منها من أنواع الأطعمة والأشربة. وبقي أن نبقي اختلاف قوى الأطعمة والأشربة، وأن أصف أنواع الأغذية، وأسمي ما في كل صنف منها، إن شاء الله تعالى.

أنواع الأطعمة

الأطعمة اللطيفة

هي التي يتولد منها دم لطيف. فمنها لباب خبز الحنطة، والحب المقشور، ولحم الفراريج، ولحم الدراج والطيهوج، والحجل، وأجنحة جميع الطيور، وما لان لحمه من صغار السمك ولم تكن فيه لزوجة، والقرع، والماش، وما أشبهه. وهذا الجنس من الأطعمة نافع لمن ليست له حركة، وكانت الحرارة الغريزية في بدنه ضعيفة، ولم يأمن أن يتولد في بدنه كيموس غليظ، ويتولد في كبده أو طحاله سدد، أو في كلاه، أو في صدره، أو في دماغه، أو في شيء من مفاصله من البلغم.

الأطعمة اللطيفة في نفسها الملطفة لغيرها

هي التي يكون ما يتولد منها لطيفا، وتلطف ما تلقاه من الكيموس اللزج الغليظ في البدن. وهذا الجنس من الأطعمة أربعة أصناف: صنف منها حلو لطيف، لما فيه من قوة الجلاء، مثل ماء الشعير، والبطيخ، والتين اليابس، والجوز، والقسطل، والعسل، ما يعمل منه من الناطف. وهذا الجنس في منفعته من جنس الأول من الأطعمة اللطيفة، إلا أنه أبلغ في تلطيف

البدن. والصنف الثاني حار حريف: كالحرف، والثوم، والكراث، والكرفس، والكرنب والجرجير، والصعتر، والنعنع، والرازيانج، والشراب الأصفر اللطيف العتيق الحار. وهذا كله نافع لمن احتاج إلى فتح السدد التي في الكبد والطحال والصدر والدماغ، وتقطيع البلغم وترقيقه. ولا ينبغي لأحد أن يكثر استعماله لأنه يرقق الدم أولا ويصيره مائيا، فيقل لذلك غذاء البدن. ويضعف ثم إنه يسخن البدن سخونة مفطرة، فيصير أكثره مرة صفراء، ثم إنه بعد ذلك إذا تمادى مستعمله في استعماله حلل لطيف الدم وترك غليظه، فصار أكثر مرة سوداء، وربما تولد من ذلك حجارة في الكلى. ومضرة هذا الصنف أشد ما تكون على من كانت المرة الصفراء غالبة عليه.

والصنف الثالث: يذيب ويلطف بملوحته، كالمري، وما لان لحمه وقل شحمه من السمك إذا ملح، والسلق، وماء الجبن، وكل ما جعل فيه من الأطعمة الملح والمري والبورق. ومنافع هذا النصف ومضاره قريبة من منافع الأشياء الحريفة ومضارها، إلا أن هذا الصنف في تنقية المعدة والأمعاء وتليين الطبيعة أبلغ.

والصنف الرابع: يقطع ويلطف بحموضته، كالخل، والسكنجبين، وحماض الأترج، وماء الرمان الحامض، وكل ما يتخذ بها من الأطعمة. وهذا الصنف نافع لمن كان معدته وسائر بدنه حارا إذا تولد فيها البلغم من غلظ ما يتناول من الأغذية ومن كثرتها.

الأطعمة الغليظة في نفسها الملطفة لغيرها

منها البصل، والجزر، والفجل، والسلجم، وما أشبه ذلك. فهذه

الأطعمة في نفسها غليظة وتلطف ما تلقى من الشيء الغليظ، بما فيها من الحدة والحرافة، وهي تولد كيموسا غليظا. ومتى ما طبخ شيء منها أو شوي ذهب عنه قوة الحرافة والتقطيع، وبقي جرمه غليظا رديئا، وقد يتناول للمنفعة بتقطيع هذه الأطعمة وتلطيفها، ويسلم من غلظ جرمها على إحدى ثلاث جهات: إما أن تطبخ فتلطف، كالذي يفعل بالبصل، وإما أن تعصر أو تطبخ ثم يستعمل ماؤها، وإما أن تؤكل نيئة فتقطع البلغم، كالذي يفعل بها جميعا.

الأطعمة الغليظة

الغالب على الأطعمة الغليظة كلها اليبس واللزوجة. فمنها شيء يكون اليبس واللزوجة من طبعه. ومنها ما يكتسب اليبس من غيره. فالذي يكون اليبس من طبعه العدس، ولحم الأرانب، والبلوط، والشاه بلوط، والكمأة، والباقلي المقلو. هذه كلها غليظة، لأن اليبس في طبائعها. وأما الذي يكتسب اليبس من غيره فالكبود والبيض المسلوق والمشوي وما قلي منه، واللبن المطبوخ طبخا كثيرا، والضروع، وعصير العنب المطبوخ، لا سيما إن كان العصير غليظا. فهذه كلها غليظة، لأن الحرارة بالطبخ أحدثت لها يبسا وانعقادا. وأما لحوم الإبل، ولحوم التيوس، ولحوم البقر، والكروش والأمعاء، فإنها غليظة بصلابتها. وكذلك الترمس، وثمر الصنوبر، والسلجم، واللوبيا، وما خبز على الفرن، فإن ظاهره غليظ لما أحدثت له النار من اليبس، وباطنه غليظ لما فيه من اللزوجة. وكذلك كل ما لم يجود عجنه أو خبزه أو إنضاجه من خبز التنور، وكل ما خبز على الطابق بدهن أو غيره، والسمن والفطر والشهد واللبن والأدمغة، فإنها كلها غليظة للزوجة فيها طبيعية. وأما الفالوذج فإنه غليظ للزوجته، والانعقاد الحادث له من الطبخ. وأما الباذنجان فإنه

غليظ لليبس وللزوجة في طبعه. وأما الخبز فإنه غليظ لاجتماع الحالات الثلاث فيه. فأما السمك الصلب اللزج فإنهغليظ، لاجتماع الصلابة واللزوجة فيه. وأما الآذان والشفاه وأطراف العضل، فإنها تولد كيموسا لزجا ليس بالغليظ، وقد تولد ما يعرض من الأغذية الباردة عن هضمها وتلطيفها، كالذي يعرض من أكل الفاكهة قبل نضجها، ومن أكل الخيار والقثاء، وشحم الأترج واللبن الحامض. فهذه الأطعمة الغليظة كلها إن صادفت بدنا حارا كثير التعب قليل الطعام كثير النوم بعد الطعام، انهضمت وغذت البدن غذاء كثيرا نافعا، وقوته تقوية كثيرة. وأحمد ما تستعمل هذه الأغذية في الشتاء، لاجتماع الحرارة في باطن البدن وطول النوم، ومتى أحس أحد في بدنه نقصانا بينا. وإن أكلها من يجد الحرارة في بدنه قليلة ولا سيما في معدته، وتعبه قليل، ونومه بعد الطعام قليل، لم يستحكم انهضامها، وتولد منها في البدن كيموس غليظ حار يابس يتولد منه سدد في الكبد والطحال. فلذلك ينبغي لمن أكل طعاما غليظا من غير حاجة إليه لعلة أو شهوة أن يقل منه ولا يفرده، ولا يدمنه. وما كان من الأطعمة الغليظة له مع غلظه لزوجة فهو أغذاها للبدن، فإن لم تنهضم فهو أكثرها توليدا للسدد.

الأطعمة المتوسطة

المتوسطة بين الغلظة واللطيفة، تصلح لمن كان بدنه معتدلا صحيحا، ولم يكن تعبه كثيرا. وأجود الأغذية له المتوسط، لأنها لا تنهكه ولا تضعفه كاللطيفة، ولا تولد خاما ولا سددا كالغليظة، وهي كل ما أحكم صنعه من الخبز، ولحوم البقر، والدجاج، والجداء، والحولية من الماعز. وأما لحوم الخرفان والضأن كلها فرطبة لزجة. وأما لحم فراخ الحمام والقطا فهي تولد دما سخنا،

وأغلظ من الدم المعتدل. وأما فراخ الوراشين فإنها مثل فراخ الحمام والقطا والإوز، فأجنحتها معتدلة، وسائر البدن كثير الفضول.

وكل ما كثرت حركته من الطير وكان مرعاه في موضع جيد الغذاء، صافي الهواء، كان أجود غذاء وألطف. وكل ما كان على خلاف ذلك فهو أردأ غذاء وأوسخ. وكل ما لم يستحكم نضجه من البيض، وخاصة ما ألقي على الماء الحر، وأخذ من قبل أن يشتد، فهو معتدل. وكل ما كان من لحم السمك ليس بصلب ولا كثير اللزوجة والزهومة، وكان مرعاه ماء نقيا من الأوساخ والحمأة فهو معتدل جيد الغذاء. ومن الفواكه التين والعنب، إذا استحكم نضجهما على الشجر وأسرعت الانحدار إلى الجوف، كان ما يتولد منها معتدلا، فإن لم تسرع الانحدار فلا خير فيها. ومن البقول الهندبا، والخس، والهليون. ومن الأشربة ما كان لونه ياقوتيا صافيا، ولم يكن عتيقا جدا.

الأطعمة الحارة

يحتاج إليها من كان الغالب عليه البرودة، وفي الأوقات الباردة والبلاد الباردة. وينبغي أن يجتنبها من كان حار البدن، وفي الأوقات الحارة، وفي البلاد الحارة. منها الحنطة المطبوخة، والخبز المتخذ من الحنطة، والحمص، والحلبة، والسمسم، والشهدانج، والعنب الحلو، والكرفس، والجرجير، والفجل، والسلجم، والخردل، والثوم، والبصل، والكراث، والخمر العتيق. وأسخن الأشربة الحارة العتيق الأصفر.

الأطعمة الباردة

ينبغي أن يستعملها من كان حار البدن، وفي الأوقات الحارة، والبلد

الحار. وهي الشعير وكل ما يتخذ منه، والجاورس، والدخن، والقرع، والبطيخ، والخيار، والقثاء، والإجاص، والخوخ، والجمار، وما بين الحموضة والعفوصة، من العنب والزبيب، والطلع، والبلح، والخس والهندبا، والبقلة الحمقاء، والخشخاش، والتفاح، والكمثرى، والرمان. فما كان من الرمان عفصا فهو بارد غليظ، وما كان حامضا فهو بارد لطيف. فأما الخل فهو بارد لطيف، وهو ضار بالعصب. وما كان أيضا من الشراب عفصا هو أقل حرارة، وما كان من ذلك حديثا غليظا فهو بارد.

الأطعمة اليابسة

يحتاج إلى الأطعمة اليابسة من كان الغالب على بدنه الرطوبة، وفي الأوقات الرطبة، وللبلد الرطب. منها العدس، والكرنب، والسويق، وكل ما يشوى ويطبخ ويقلى، وكل ما أكثر فيه السذاب والمري والخل والأبزار والخردل، ولحم المسن من جميع الحيوان.

الأطعمة الرطبة

يحتاج إلى الأطعمة الرطبة من أفرط عليه اليبس، وفي الأوقات اليابسة والبلد اليابس. وهي: الشعير، والقرع، والبطيخ، والقثاء، والخيار، والجوز الرطب، والعنب، والنبق، والإجاص، والتوت، والجمار، والخس، والبقلة اليمانية، والقطف، والباقلاء الرطب، والحمص الرطب، واللوبيا الرطبة، وكل ما يطبخ بالماء ويسلق به وثقل فيه الأبزار والخل والمري والسذاب، وجيمع لحوم صغار الحيوان.

الأطعمة القليلة الفضول

أجنحة الطيور، وأكارع المواشي، ورقابها، وما يربى في البر من الحيوان في المواضع الجافة.

الأطعمة الكثيرة الفضول

منها لحم الأوز خلا الأجنحة، والأكباد كلها من جميع الحيوان، والنخاع والدماغ، والطيور التي في الفيافي والآجام، والحمص الطري، والباقلاء الطري ولحم الضأن، ولحم المراضع من كل الحيوان، ولحم كل ساكن غير سريع النهوض، وما كان من السمك على ما ذكرنا صلبا لرجا.

الأطعمة التي غذاؤها كثير

كل ما غلظ من الأطعمة إذا نهضم غذى غذاء كثيرا. وكل ما كان له فضول كان غذاؤه كثيرا.

وقد يحتاج إلى الأطعمة الكثيرة الغذاء من احتاج إلى أن يأخذ طعاما قليلا يغذي غذاء كثيرا، كالناقة والمسافر، وكالذي يثقل معدته الكثير من الطعام وبدنه يحتاج إلى عذاء كثير. فمن ذلك لحم البقر، والأدمغة، والأفئدة، وحواصل الطير كلها، والسمك الغليظ اللوح، والسميد والباقلاء، والحمص، واللوبيا، والترمس، والعدس، والتمر، والبلوط، والشاه بلوط، والسلجم، تغذو غذاء كثيرا لغلظها. واللبن الحليب والشراب الأحمر. وغذاء اللبن كله أغلظه وأرقه، ل غذاء. وأغلظ اللبن لبن البقر ولبن النعاج، وأرقه لبن الأتن وألبان اللقاح. وألبان الماعز متوسطة بين ذلك.

وأغذى الأشربة النبيذ الغليظ الحلو، ثم الغليظ الأسود الحلو، ثم الغليظ الأبيض الحلو، ثم من بعد هذه الأشربة العفصة الحلوة. وكلما مال إلى الحمرة والحلاوة كان أغذى. والأبيض أقلها غذاء.

الأطعمة التي غذاؤها قليل

كل ما كان من الأطعمة لطيفا كان غذاؤه قليلا، وكل ما أفرط فيه اليبس أو الرطوبة، أو كثرة الفضل قل غذاؤه، كالأكارع، والكروش، والمصارين، والشحم، والآذان، والرئة، ولحم الطير كله. وما ملح من الحيوان قليل الغذاء، لليبس الذي فيه. وكذلك الزيتون، والفستق، والجوز، واللوز، والبندق، والغبيرا والزعرور، والخروب، والبطم، والكمثرى العفص، والزبيب العفص، فإنما قل غذاؤه للعفوصة.

وأما السمك والقرع، والرمان والتوت، والإجاص والمشمش، فإنما قل غذاؤها لكثرة رطوبيتها. وغذؤها غير باق سريع التحلل. وأما خبز الشعير والخشكار، والباقلاء الرطب، وجميع البقول، مثل الكرنب، والسلق، والحماض، والبقلة الحمقاء، والفجل، والخردل، والحرف، والجزر، فقليلة الغذاء، لكثرة الفضل فيها. وأما البصل والثوم والكراث فإنها إذا أكلت نيئة لم تغذ. وإذا طبخت غذت غذاء يسيرا. وأما التين والعنب فإنهما بين ما قل غذاؤه وما كثر غذاؤه.

الأطعمة البطيئة الانهضام

وإنما يعسر الانهضام من الطبيعة في الطعام إذا كان يابسا، أو صلبا، أو لزجا، أو ملتزرا، أو كثير الدسم، أو كثير الفضول، أو كريه الطعم، أو الحرافة

فيه مفرطة أو البرد أو الحر، أو مخالفا للمزاج الطبيعي إذا لم يشته. فلحم البقر ولحم الإبل، والكروش والأمعاء، والأوز، والآذان من جميع الحيوان، والجبن، والبيض البارد، عسرة الانهضام ليبسها وصلابتها. وكذلك من الطير الوراشين والفواخت والطواويس. والقوانص من جميع الطير عسرة الانهضام.

ومن الحبوب: الأرز، والترمس، والعدس، والدخن، والجاورس، والبلوط والشاهبلوط.

وأما لحم التيوس، وأكارع البقر، فعسرة الانهضام، لزهومتها وكراهتها. وأما لحم الضأن، والكبود من جميع الحيوان والإوز، فلكثرة الفضول فيها وأما الجبن الحامض فلبرده. وأما الحنطة المسلوقة فللزوجتها وتلززها. وأما الباقلاء واللوبياء –كثرة النفخ فيها. وأما السمسم فلكثرة دهنه. وأما العنب والتين وسائر الفواكه إذا لم يستحكم نضجها، والأترج والباذروج والسلجم والجوز والشراب الحديث الغليظ، فلكثرة الفضول فيه.

الأطعمة الضارة للمعدة

السلق رديء، للذعه أياها، ولما فيه من الحدة البورقية، والباذروج والسلجم ما لم يستقص طبخهما للذع فيهما. والبقلة اليمانية والقطف للزوجتهما، فلذلك ينبغي أن يؤكلا بالخل، والمري. والحلبة رديئة للمعدة، للذعها إياها، والسمسم رديء للمعدة للزوجته وكثرة دهنه، واللبن لسرعة استحالته في المعدة والعسل ما أكثر منه لذع المعدة وأغثاها. والبطيخ أيضا يغثي، وإذا لم ينضج في المعدة ولد كيموسا رديئا، فينبغي بعد أكل البطيخ أن يأكل طعاما كثيرا جيد الكيموس.

والأدمغة أيضا كلها رديئة للمعدة، فلذلك ينبغي أن تؤكل بالصعتر، والفودنج البري، والخردل، والملح. وكذلك أيضا المخاخ. والنبيذ الحديث الغليظ الأسود العفض يسرع الحموضة في المعدة ويغثي.

الأطعمة التي تفسد في المعدة

المشمش، والسمسم، والنون، والبطيخ، إذا لم يسرع انحدارها عن المعدة وصادفت فيها كيموسا رديئا أسرع إليها الفساد. فيجب أن تؤكل قبل الطعام والمعدة نقية، ليسرع انحدارها عنها، ويسهل الطريق لما يؤكل بعدها من الطعام، فإن أكلت بعد الطعام فسدت لبقائها في المعدة، وأفسدت سائر الطعام بفسادها، وربما بلغ الفساد بها إلى أن تصير بمنزلة السم القاتل.

الأطعمة التي لا يسرع إليها الفساد في المعدة

من كان يفسد طعامه في معدته فأجود الأطعمة له ما كان غليظا بطئ الانحدار، مثل لحم البقر، وأكارعها، وما أشبه ذلك، مما قد ذكرناه في الأطعمة الغليظة.

الأطعمة الملينة المسهلة للبطن

كل ما كان من الأطعمة فيه حلاوة أو حدة أو لزوجة. فمن ذلك ماء العدس، وماء الكرنب يلينان البطن، وجرمهما يمسك البطن، وكذلك مرقة الديوك العتيقة، وخبز الخشكار، وماء الحلبة مع العسل، وزيتون الماء إذا كان قبل الطعام مع مري لين البطن، فإن كان أيضا بعد الطعام بلا مري فإنه يقوي المعدة على دفع الطعام لعفوصته. وكذلك ما عمل منه بالخل.

وكل طعام عفص فإنه دابغ للمعدة مقو لها. فأما اللبن وماء الجبن فيلينان البطن، ولا سيما إذا خلط به الملح. ولحم الصغير من الحيوان، والسلق، والقطف، والبقلة اليمانية، والقرع والبطيخ، والتين، والزبيب الحلو، والتوت الحلو، والجوز الرطب، والإجاص الرطب، والنبيذ الحلو، ملين للبطن.

الأطعمة التي تحبس البطن

إذا كان الطعام ينحدر عن المعدة قبل انهضامه احتجنا إلى الأطعمة الممسكة الحابسة للبطن.

وكل ما غلب عليه من الأطعمة اليبس أو العفوصة أو الغلظ، كالسفرجل والكمثرى، وحب الآس، وثمر العوسج، وجرم العدس، والبلوط، والشاهبلوط. والنبيذ العفص، يمسك البطن، لعفوصته وقبضه. والجاورس، والدخن وسويق الشعير، تمسك البطن بيبوستها. ولحم الأرانب، والكرنب المطبوخ بعد صب مائه الأول عنه، ثم يطبخ بماء ثان، فإنه يمسك البطن بيبسه. واللبن المطبوخ، والجبن كلاهما يمسك البطن لغلظه. وذلك أن يطبخ اللبن حتى تفني مائيته، ويبقي جرمه، وربما ولد سددا في الكبد، وحجارة في الكلى.

وأما الأشياء الحامضة كالتفاح الحامض، والرمان الحامض، فإن صادفت في المعدة كيموسا غليظا قطعته وحدرته، ولينت البطن، وإن صادفت المعدة نقية أمسكت البطن.

الأطعمة التي تولد السدد

اللبن الغليظ والجبن ربما أحدثا سددا في الكبد، وحجارة في الكلى، لمن أكثر استعمالها، وكان كلاه وكبده مستعدة لقبول الآفات. وجميع الأطعمة الحلوة رديئة للكبد والطحال، فإذا أكل معها الفوذنج الجبلي، والصعتر، والفلفل، فتح سدد الكبد والطحال. والرطب، والتمر، وجميع ما يتخذ من الحنطة سوى الخبز الجيد الصنعة، والأشربة الحلوة أيضا تولد سددا في الكبد، وحجارة في الكلى، وتغلظ الطحال.

الأطعمة التي تجلو المعدة وتفتح السدد

ماء الكشك كشك الشعير يجلو المعدة، ويفتح السدد. والحلبة، والبطيخ، والزبيب الحلو، والباقلاء، والحمص الأسود، ينقي الكلى، ويفتت الحجارة المتولدة فيها. والكبر بالخل، والعسل إذا أكل قبل الطعام فإنه يجلو وينقي المعدة والأمعاء، ويفتح السدد. والسلق أيضا يجلو ويفتح السدد في الكبد، ولا سيما إذا أكل بالخردل. والبصل، والثوم، والكراث، والفجل يقطع ويلطف الكيموس الغليظ. والتين رطبه ويابسه يجلو وينقي الكلى. واللوز كله، ولا سيما المر منه فإنه يجلو ويلطف، ويفتح سدد الكبد والطحال، ويعين على نفث الرطوبة من الصدر والرئة. والفستق يقوي الكبد ويفتح سددها.

وعسل النحل حار يابس وماء العسل يلطف البصاق الغليظ، ويعين على نفثه. والسكنجبين يلطف ويقطع الرطوبة الغليظة. ويفتح سدد الكبد والطحال، وينقي الصدر والرئة.

والنبيذ اللطيف إذا كانت له حدة وحرافة يصفي اللون، وينقي العروق من الكيموس الغليظ، وينتفع به من كان يجد في بدنه كيموسا غليظاباردا. وأما النبيذ الرقيق المائي فإنه يعين على نفث الرطوبة من الرئة، بتقويته الأعضاء وتلطيفه لما بها من الفضل الغليظ، وقد يفعل ذلك النبيذ الحلو.

الأطعمة التي تنفخ

الحمص والباقلاء، ولا سيما إن طبخ بقشره، فإن طبخ مقشرا أو مسحوقا كان أقل نفخا، وإن قلي أيضا كان أقل نفخا. وبعد هذه اللوبياء، والماش، والعدس، والشعير إذا لم ينعم طبخها. والنعناع، والأنجذان، والحلتيت، والتين الرطب، يولد نفخا إلا أنه يتحلل سريعا لسرعة انحداره. وما استحكم نضجه من التين والعنب كان أقل نفخا. ويابس التين أقل نفخا من رطبه. واللبن يولد رياحا في المعدة. والعسل إذا طبخ ونزعت رغوته قل نفخه. والنبيذ الحلو العفص يولد نفخا.

ما يذهب النفخ من الأطعمة

كل الطعام نافخ إذا أحكمت صنعته، وأجيد طبخه وإنضاجه قل نفخه. وكل ما قلي منه قل نفخه. وكل ما خلط به الأبزار المحللة للرياح كالكمون والذاب، والأنيسون والكاشم يقل نفخه. والخل الممزوج بالعسل يلطف الرياح، ويذهب بالنفخ.

كتاب إسحاق بن عمران إلى بعض إخوانه

كتب إسحاق بن عمران المعروف بسم ساعة إلى رجل من إخوانه: اعلم رحمك الله أن الخام والبلغم يظهران على الدم والمرة بعد الأربعين سنة فيأكلانهما، وهما عدوا الجسد وهادماه. ولا ينبغي لمن خلف الأربعين سنة أن يحرك طبيعة من طبائعه غير الخام والبلغم، ويقوي الدم جاهدا، غير أنه ينبغي له في كل سبع سنين أن يفجر من دمه شيئا، ومن المرة مثل ذلك، لقلة صبره على الطعام اللذيذ، والمشروب الروي.

فتعاهد أصلحك الله ذلك من نفسك، واعلم أن الصحة خير من المال والأهل والولد، ولا شيء بعد تقوى الله سبحانه وتعالى خير من العافية.

وما تأخذ به نفسك، وتحفظ به صحتك أن تلزم ما أكتب به إليك: في شهر يناير تشرب شرابا شديدا كل غداة. وفي شهر فبرير لا تأكل السلق. وفي مارس لا تأكل الحلواء كلها وتشرب الأفسنتين في الحلاوة. وفي أبريل لا تأكل شيئا من الأصول التي تنبت في الأرض ولا الفجل. وفي مايه لا تأكل رأس شيء من الحيوان. وفي يونيه تشرب الماء البارد بعد ما تطبخه وتبرده، على الريق. وفي يوليه تجنب الوطء. وفي أغشت لا تأكل الحيتان. وفي سبتمبر تشرب اللبن البقري. وفي أكتوبر لا تأكل الكراث نيئا ولا مطبوخا. وفي نبنبر لا تدخل الحمام. وفي دجنبر لا تأكل الأرنب.

زعم علماء الطب أن الجسد من الطبائع الأربع اثني عشر رطلا: فللدم منها ستة أرطال، وللمرة الصفراء والسوداء والبلغم ستة أرطال، فإن غلب

الدم الطبائع تغير منه الوجه وورم، وخرج ذلك إلى الجذام، وإن غلبت الثلاث الطبائع الدم أنبتت المد.

قال: فإذا خاف الإنسان غلبة هذه الطبائع بعضها بعضا فليعدل جسده بالاقتصاد، وينقه بالمشي، فإنه إن لم يفعل اعتراه ما وصفنا: إما جذام، وإما مد. نسأل الله العافية.

ولا بأس بعلاج الجسد في جميع الأزمان إلا أيام السموم، إلا أن ينزل فيها مرض شديد لا بد من مداواته، أو يظهر فيها موم، أو ذات الجنب، فإنه ينبغي للطبيب أن يعانيه بفصاد، أو شيء خفيف، فإنها أيام ثقيلة. وهي خمسة عشر يوما من تموز إلى النصف من آب، فذلك ثلاثون يوما لا يصلح فيها علاج، وكان بقراطيس يجعلها تسعة وأربعين يوما، ويقطع الغرر والخطر في أيام القيظ، فإذا مضى لأيلول ثلاثة أيام طاب التداوي كله.

وأمر جالينوس في الربيع بالحجامة، والنورة، وأكل الحلاوة وشربها، ونهى عن القطاني واللبن الرائب، وعتيق الجبن، والمالح، والفاكهة اليابسة، إلا ما كان مسلوقا.

وفي القيظ وهو زمان المرة الصفراء بأكل البارد الرطب على قدر قوة الرجل في طبعه وسنه، وترك الجماع، وأكل الحوت الطري، والفاكهة الرطبة والبقول ولحم البقر والمعز، ومن القطاني العدس، ومن الأشربة المربب بالورد، والسكركة من الشعير، والسكر بالماء المطبوخ، وأكل الكزبرة الخضراء في الأطعمة وأكل الخيار والبطيخ، ولزوم دهن الورد، وماء الورد، ورش الماء، وبسط البيت بورق الشجر، ومن الدواء السكر بالمصطكى، يسحقهما مثلا

بمثل، ويأخذ منهما على الريق قدر الدرهم أو أكثر قليلا.

وفي زمان الخريف وهو زمان السوداء، وهو أثقل الأزمنة على أهل تلك الطبيعة، من الطعام والشراب بالحار الرطب، مثل الأحساء بالحلاوة، وأكل العسل وشربه. ونهي فيه عن الجماع، وأكل لحم المعز والبقر، وأمر بأكل صيود البر والبحر، وحسو البيض والدهن قبل الحمام، وإيتان النساء على غير شبع في آخر الليل وفي أول النهار، والتماس الولد على الريق من الرجل والمرأة، فإن أولاد ذلك الزمان أسد وأقوى تركيبا من غيرهم، كما قالت الحكماء.

الخمر المحرمة في الكتاب

أجمع الناس على أن الخمر المحرمة في الكتاب خمر العنب، وهي ما غلا وقذف الزبد من عصير العنب، من غير أن تمسه نار. ولا تزال خمرا حتى تصير خلا، وذلك إذا غلبت عليها الحموضة، وفارقتها النشوة؛ لأن الخمر ليست محرمة العين، كما حرمت عين الخنزير، وإنما حرمت لعرض دخلها، فإذا زايلها ذلك العرض عادت حلالا، كما كانت قبل الغليان حلالا، وعينها في كل ذلك واحدة، وإنما انتقلت أعراضها من حلاوة إلى مرارة، ومن مرارة إلى حموضة، كما ينتقل طعم الثمرة إذا أينعت من حموضة إلى حلاوة، والعين قائمة، وكما ينتقل طعم الماء بطول المكث فيتغير طعمه وريحه، والعين قائمة.

ونظير الخمر فيما يحل ويحرم بعرض: المسك، الذي هو دم عبيط حرام، ثم يجف وتوجد رائحته فيصير حلالا طيبا. فهذه الخمر بعينها المجمع على تحريمها. وأصحاب النبيذ إنما يدورون حولها ويتعللون بأنهم يشربون ما دون

المسكر، ولا لذة لهم دون مواقعة السكر، كما قال الشاعر:

يدورون حول الشيخ يلتمسونه بأشربة شتى هي الخمر تطلب

وكقول القائل: "إياك أعني فاسمعي يا جاره"

قيل للأحنف بن قيس: أي الشراب أطيب؟ فقال: الخمر. قيل له: وكيف علمت ذلك، وأنت لم تشربها؟ قال: إني رأيت من حلت له لا يتعداها، ومن حرمت عليه إنما يدور حولها.

وقال ابن شبرمة:

ونبيذ الزبيب ما اشتد منه فهو للخمر والطلاء نسيب

وقال عبد الله بن القعقاع:

أتانا بها صفراء يزعم أنها زبيب فصدقناه وهو كذوب

فهل هي إلا ساعة غاب نحسها أصلي لربي بعدها وأتوب

وقال ابن شبرمة: أتانا الفرزدق، فقال: اسقوني. فقلنا: وما تريد أن نسقيك؟ قال: "أقربه إلى الثمانين"، ويعني حد الخمر.

وقال قيصر لقس بن ساعدة: أي الأشربة أفضل عاقبة في البدن؟ قال: "ما صفا في العين، واشتد على اللسان، وطابت رائحته في الأنف، من شراب الكرم". قيل له: فما تقول في مطبوخه؟ فقال: "مرعى ولا كالسعدان!". قيل له: فما تقول في نبيذ الزبيب؟ قال: ميت أحيى، فيه بعض المتعة، ولا يكاد يحيا من مات مرة. قيل له: فما تقول في العسل؟ قال: نعم شراب الشيخي ذي الإبردة، والمعدة الفاسدة.

علي بن عياش قال: إني عند الوليد بن يزيد في خلافته، إذ أتي بابن

شراعة من الكوفة، فوالله ما سأله عن نفسه ولا سفره، حتى قال له: يا ابن شراعة، إني والله ما بعثت فيك لأسألك عن كتاب الله، ولا سنة رسول. قال: والله لو سألتني عنهما لأصبتني فيهما حمارا. قال: فإنما أرسلت إليك لأسألك عن القهوة. قال: فأنا دهقانها الخبير، وطبيبها العليم. قال: فأخبرني عن الطعام؟ قال: ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم، غير أن أنفعه أدسمه، وأشهاه أمرؤه، قال: فما تقول في الشراب؟ قال: ليسأل أمير المؤمنين عما بدا له. قال: فما تقول في الماء؟ قال: لا بد لي منه، والحمار شريكي فيه. قال: فما تقول في السويق؟ قال: شراب الحزين والمستعجل والمريض. قال: فما تقول في اللبن؟ قال: ما رأيته قط إلا استحييت من أمي، من طول ما أرضعتني به. قال: فنبيذ التمر؟ قال: سريع الامتلاء، سريع الانفشاش. قال: فنبيذ الزبيب؟ قال: حاموا به على الشراب. قال: فما تقول في الخمر؟ قال: أوه، تلك صديقة روحي. قال: وأنت والله صديق روحي. قال: وأي المجالس أحسن؟ قال: ما شرب الناس على وجه قط أحسن من النساء.

قال الأصمعي: دخلت على هارون الرشيد، وهو في الفرش منغمس كما ولدته أمه، فقال لي: يا أصمعي، من أين طرقت اليوم؟ قال: قلت احتجمت. قال: وأي شيء أكلت عليها؟ قلت: سكباجة وطباهجة. قال: رميتها بحجرها. قال: هل تشرب؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين:

اســــقـني حـتى تـراني مـائـلا　　وترى عمران ديني قـد خرب

قال: يا مسروق، أي شيء معك؟ قال: ألف دينار. قال: ادفعها إليه.

آفات الخمر وجناياتها

أول ذلك أنها تذهب العقل – وأفضل ما في الإنسان عقله – وتحسن القبيح، وتقبح الحسن. قال أبو نواس:

اسقني حتى تراني ... حسن عندي القبيح

وقال أيضا:

اسقني صرفا حميا ... تترك الشيخ صبيا

وتريه الغي رشدا ... وتريه الرشد غيا

وقال أيضا:

عتقت في الدن حولا ... فهي في رقة ديني

وقال الناطق بالحق:

تركت النبيذ وشرابه ... وصرت خدينا لمن عابه

شراب يضل سبيل الرشاد ... ويفتح للشر أبوابه

وإنما قيل لمشارب الرجل "نديم" من الندامة، لأن معاقر الكأس إذا سكر تكلم بما يندم عليه، وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه نادمه، لأنه فعل مثل ما فعله، فهو نديم له، كما يقال جالسه فهو جليس له. والمعاقر: المدمن، كأنه لزم عقر الشيء، أي فناءه.

وقال أبو الأسود الدؤلي:

دع الخمر يشربها الغواة فإنني ... رأيت أخاها مغنيا بمكانها

فإلا يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها غذته أمه بلبانها

وقد شهر أصحاب الشراب بسوء العهد، وقلة الحفاظ، وأنهم صديقك

ما استغنيت حتى تفتقر، وما عوفيت حتى تنكب، وما غلت ذنانك حتى تنزف، وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك. قال الشاعر:

أرى كل قوم يحفظون حريمهم ... وليس لأصحاب النبيذ حريم

إذا جئتهم حيوك ألفا ورحبوا ... وإن غبت عنهم ساعة فذميم

إخاؤهم ما دارت الكأس بينهم ... وكلهم رث الوصال سئوم

فهذا ثنائي لم أقل بجهالة ... ولكنني بالفاسقين عليم

وقال قصي بن كلاب لبنيه: اجتنبوا الخمر، فإنها تصلح الأبدان، وتفسد الأذهان.

وقيل لعدي بن حاتم: مالك لا تشرب الخمر؟ قال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقيل له: مالك لا تشرب النبيذ؟ قال: معاذ الله أن أصبح حكيم قومي وأمسي سفيههم.

وقيل لأعرابي: مالك لا تشرب النبيذ؟ قال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقال يزيد بن الوليد: النشوة تحل الحبوة.

باب في نوادر أشعب

قال أشعب: في وفي أبي الزناد عجب، كنت أنا وهو في كفالة عائشة بنت عثمان فما زال يعلو وأسفل حتى بلغنا غايتنا هذه.

قيل لأشعب: لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر، لكان أولى بك. قال: قد فعلت. قالوا: فما حفظت من الحديث؟ قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من كان فيه خصلتان كتب عن الله خالصا مخلصا". قالوا: إن هذا حديث حسن فما هاتان الخصلتان؟ قال: نسي نافع واحدة ونسيت أنا الأخرى.

وقال أشعب: رأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل. قالوا له: كيف ذلك؟ قال: رأيتني أحمل بدرة، فمن شدة ثقلها علي كنت أسلح في ثيابي، ثم انتبهت فإذا أنا بالسلح ولا بدرة.

ساوم أشعب رجلا بقوس، فقال له: أقل ثمنها دينار. قال أشعب: والله أنك رميت بها طائرا في جو السماء فوقع مشويا بين رغيفين ما اشتريتها منك بدينار أبدا.

وضرب الحجاج أعرابيا سبعمائة سوط، وهو يقول عند كل سوط. شكرا لك يا رب. فلقيه أشعب، فقال: أتدري لم ضربك الحجاج سبعمائة سوط؟ قال: ما أدري. قال: لكثرة شكرك الله. يقول الله: "لئن شكرتم لأزيدنكم" فقال الأعرابي:

يا رب لا شـــكرا فلا تزدني أســأت في شــكرك فاعف عني

باعــد ثــواب الشـــــاكــريــن مــني

وسأل رجل من أشعب أن يسلفه ويؤخره فقال: هاتان حاجتان، فإذا قضيت إحداهما فقد أنصفت. قال له الرجل: رضيت قال: فأنا أؤخرك ما شئت ولا أسلفك.

وقيل لأشعب: هل خلق أطمع منك؟ قال: بلى، أمي؛ فإني كنت إذا جئتها بفائدة قد أعطيتها قالت: ما جئت به؟ فأتهجى لها الشيء حرفا حرفا. ولقد أهدي لنا مرة غلام قالت: ما جئت به؟ قلت: غين. قالت: ثم ماذا؟ قلت: لام ألف ميم. فأغمي عليها، وجعلت تضرط. ولو أخبرتها به جملة لطار قلبها فرحا.

وقيل له: ما بلغ من طمعك؟ قال: لم أنظر إلى اثنين يتساران إلا حسبت أنهما يأمران لي بشيء.

ونظر أشعب إلى رجل قبيح الوجه، فقال: ألم ينهكم سليمان بن داود أن تخرجوا بالنهار.

ومر أشعب برجل نجار يعمل طبقا فقال له: زد فيه طوقا واحدا تتفضل به علي. قال: وما يدخل عليك من ذلك؟ قال: لعل يوما يهدى إلي فيه شيء.

قال الأصمعي: أخبرني هارون بن زكريا عن أشعب قال: أدركت الناس يقولون: قتل عثمان. قال الأصمعي: وعاش أشعب إلى زمان المهدي ورأيته.

دخل رجل على الأعمش يسأله عن مسألة، فرد عليه فلم يسمع، قال

له: زدني في السماع يرحمك الله. قال ما ذلك لك، ولا كرامة. قال: فبيني وبينك رجل من المسلمين. قال: فخرجا إلى الطريق، فمر بهما شريك القاضي فقال: إني حدثت هذا بحديث فلم يسمع، فسألني أن أزيده في السماع لأنه ثقيل السمع وزعم أن ذلك واجب له، فأبيت. قال له شريك: عليك أن تزيده، لأنك تقدر أن تزيد في صوتك، ولا يقدر أن يزيد في سمعه.

أتت ليلة الشك من رمضان، فكثر الناس على الأعمش يسألونه عن الصوم، فضجر، ثم بعث إلى بيته في رمانة فشقها ووضعها بين يديه، فكان إذا نظر إلى رجل قد أقبل يريد أن يسأله تناول حبة فأكلها، فكفى الرجل السؤال ونفسه الرد.

قال رقبة بن مصقلة: سفه علينا الأعمش يوما، فقالت امرأته من وراء الستر: احملوا عنه، فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثة سنة إلا مخافة أن يلطم كريه، أو يشتم رفيقه.

طلبت بنت الأعمش من الأعمش حاجة، فحجبها بالرد، فقالت: والله ما أعجب منك، ولكني أعجب من قوم زوجوك.

ودخل رقبة بن مصقلة على الأعمش، فقال: إنا والله لنأتينك فما تنفعنا، ونتخلف عنك فما تضرنا، وإن الوقوف إليك لذل، وإن تركك لحسرة، تسأل الحكمة فكأنما تسعط الخردل، وما أشبهك إلا بالصماخيقون، فإنه كريه الشربة، نافع للمعدة. فرفع رأسه الأعمش وقال: من هذا المتكلم؟ فقيل له: رقبة بن مصقلة. فنكس رأسه.

وقال رجل من تلاميذ الأعمش: صنعت للأعمش طعاما، ثم دعوته،

فمضى معي وأنا أقوده، حتى سقطت رجله في حفرة يعملها الصبيان للكرة، فقال: ما هذا؟ قلت: حفرة يعملها الصبيان للكرة. قال: لا، ولكنك حفرتها لتقع رجلي فيها. والله لا أكلت عندك يومي هذا طعاما. قال: فحملت الطعام إليه، ثم صنعت له بعد ذلك طعاما ودعوته إليه، فقال: ادخل بنا الحمام قبل ذلك؟ فأدخلته الحمام، فلما جئت أن أصب الماء الحار على رأسه قال: ما دعاك إلى هذا؟ أردت أن تسلق قفاي، والله لا أكلت عندك يومي هذا طعاما! قال: فحملت الطعام إليه.

وكثر الشعر على الأعمش فقلنا له: لو أخذت من شعرك؟ قال: لا جد حجاما يسكت حتى يفرغ. قلنا له: فإنا نأتيك بحجام ونتقدم إليه أن يسكت حتى يفرغ. قال: فافعلوا. قال: فأتيناه بحجام وأعذرنا إليه أن لا يتكلم حتى ينقضي أمره، فبدأ الحجام بحلقه، فلما أمعن في حلقه سأله عن مسألة، فنفض ثيابه وقام بنصف رأسه محلوقا، حتى دخل بيته؛ ثم جئناه بغيره، فقال: لا والله لا أخرج إليه حتى تصوموه أو تحلفوه. فحلفناه ألا يسأله عن شيء. فخرج إليه.

الفهرس

مقدمة ٥

كتاب اللؤلؤة في السلطان ١٤

كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها ٢٠

كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد ٣٢

باب في الحياء ٣٧

باب جامع الآداب ٣٨

باب أدب النبي لأمته ٤٠

باب في آداب الحكماء والعلماء ٤٣

باب التماس الرزق ٥٠

وما يعود على الأهل والولد ٥٠

باب في فضل المال ٥٢

باب في الشباب والصحة ٥٥

كتاب الجوهرة في الأمثال ٥٦

مواعظ الأنبياء عليهم السلام ٦٤

مواعظ الحكماء ٦٨

مواعظ الآباء للأبناء ٧٢

كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ٧٧

قول الشعوبية وهم أهل التسوية ٩٠

باب المتعصبين للعرب ٩٧

كتاب الواسطة في الخطب ٩٩
باب تفاضل البلدان ١٠٩
كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب ١١٤
كتاب إسحاق بن عمران إلى بعض إخوانه ١٤٩
باب في نوادر أشعب ١٥٦